الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة محمد بوضياف – المسيلة

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
قسم التاريخ

الرقم التسلسلي: .....
رقم التسجيل: 095043652

صـورة الأسـود في متخيل الغرب الإسلامـي

مذكرة ماستر ل.م.د.
في تخصص تاريخ الغرب الإسلامي
من إعداد الطالبة: سارة بناني

أجيزت في دورة سبتمبر 2022، من قبل اللجنة المكونة من:

الرقم	الاسم واللقب	مؤسسة الانتساب	الصفة
1	الطاهر بونابي	جامعة المسيلة	رئيسا
2	لخضر بولطيف	جامعة المسيلة	مشرفا
3	عبد الغني حروز	جامعة المسيلة	عضوا

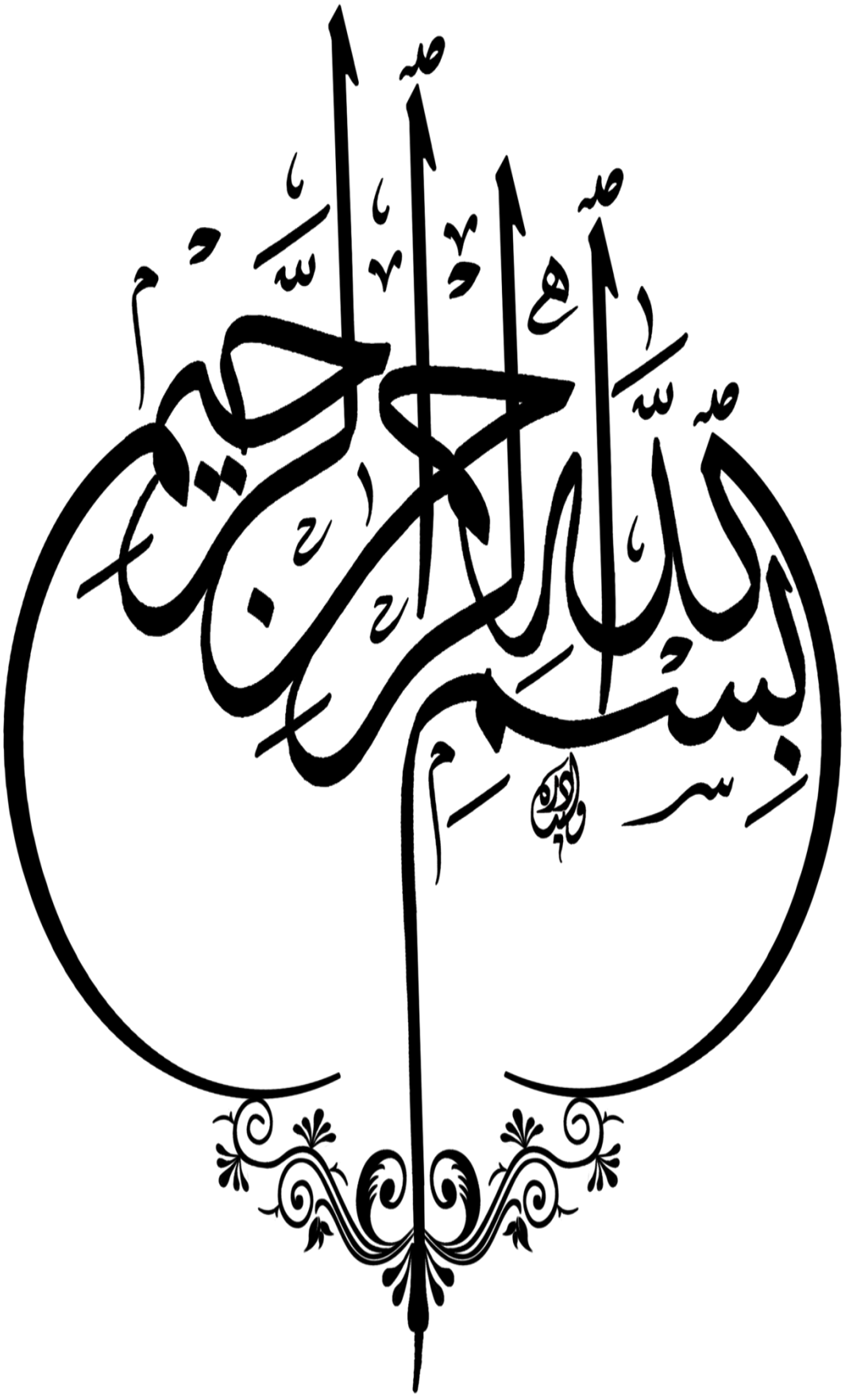
بسم الله الرحمن الرحيم

إهـــداء

إلى:

من لم تدخر جهداً في سبيل إسعادي على الدوام.. أمي الحبيبة.

قدوتي والدي العزيز.

أختي ملهمتي ومشجعتي.

زوجي العزيز الذّي كان خير داعم لي بتشجيعاته المتواصلة، وصبره معي، والدفع بي قدما في مجال البحث العلمي.

فلذات كبدي بناتي أهدي إليكما عملي، كما أعتذر عن تقصيري في كثير من الأحيان.

مديري في العمل الذي كان له فضل كبير في تشجيعي، وخلق المساحة للتوفيق بين الدراسة والعمل.

إلى أبنائي وتلاميذي.

أهدي إليكم جميعا بحث تخرجي...

شكر وتقدير

لله الفضل من قبل ومن بعد، فالحمد لله.

ثم خالص الشكر والتقدير للأستاذ المشرف:

ملهمي:

الدكتور "لخضر بولطيف"

لقبوله الإشراف على هذا العمل أولا، وعلى رحابة صدره في تلقي الاستفسارات والإجابة عنها بكل روح علمية، والصّبر معي، وعلى جميع التّشجيعات المستمرة التي قدّمها لي طول مدة إشرافه.

حفظه الله ووفقه لما يحبه ويرضاه.

كما الشكر موصول لأساتذتي على كلّ مجهوداتهم في صنع نجاحي.

المقدمــة

تصدّر مصطلح الصّورة الدّراسات الثقافية الحديثة القائمة على النصوص ذات الصلة بالعلاقات العامة المكّونة للمجتمعات، بناءً على الصّور الذّهنية والنمطية ومُتخيّل الشعوب، لما لها من أثر بارز في استنتاج الانطباعات الّتي تُكوّن أساس المواضيع المدروسة، وكونها المرآة التي تعكس الفكر، وتختزل الصّورة في تفسيرات عدّة للمعتقدات والثقافات في فترات معينة، حيث تميل بعض الدّراسات الحديثة إلى تسليط الضوء على موضوعات من قبيل دراسة صورة الأسود كنتاج لصورة الآخر، دلالة على الأشياء وعلى الإنسان، بعضها تخص العنصر البشري الأسود، وتجذب الباحثين-بالتالي- لدراسة العقليات الثقافية الغربية والعربية تجاهه، سواء في الفترة الحديثة أو الوسيطة، فالحديثة تميزت بحركات الحريات المدنية في الولايات المتحدة الأمريكية بعد الحرب العالمية الثانية، والتي عنت بمطالبة حقوق المجتمع الأسود ومساواته بالعنصر الأبيض في المجتمع الأمريكي، أما الفترة الوسيطة فتخص الإنتاج الحضاري الإنساني عبر التاريخ، وتكوين المفاهيم عن الأسود بمختلف دلالاته ضمن تفاعلات المجتمع الإسلامي.

انتقل الإسلام إلى المغرب والأندلس اللذين أُصطلح على تسميتهما بالغرب الإسلامي كمنطقتين جغرافيتين ارتبطتا طبيعيا وسياسيا وثقافيا، تحت لواء الإسلام حاملا هذا الأخير معه بناءه الاجتماعي والثقافي والأخلاقي، ومكوّنا لمرحلة تاريخية حولت حياة الأفراد بمختلف جوانبها، فطُرح موضوع صورة الأسود في متخيل المجتمعات العربية، وهو ما حاولت قلة من الدراسات الحديثة الإجابة عليه عبر التركيز على مختلف الأصعدة داخل المجتمعات، ونادرة على صعيد حيز الغرب الإسلامي.

وبناءً على أهمية الحيثيات المذكورة اخترت البحث في موضوع متخيل التاريخ الإسلامي في حيز الغرب الإسلامي، تحت مسمّى "صورة الأسود في متخيل الغرب

الإسلامي"؛ ضمن ربط صور الذّهنيات بين الماضي والحاضر، لأنّ الماضي جزء لا يتجزّأ من ولادة أفكار الحاضر، وبناء الأفكار المستقبلية يُكوّن من أساسيات الأفكار السابقة، وذلك لتجسيد مستخلص التمثّلات الذهنية حولها.

الدّراسات السابقة:

تقل الدّراسات والبحوث التي أنتجت حول تاريخ صور الذهنيات والتخيلات التي اهتمت بواقع الأسود في متخيل العربي الإسلامي، لكن لا يمكن أن نغفل عن ذكر بعض منها، كدراسة الكاتب البحريني نادر كاظم في كتابه "صورة السود في متخيل الغرب الإسلامي"، غير أنه يمكن التنويه بأنها في الغالب تعلقت بأزمة العنصرية ضد البشر السود، وكان يغلب عليها الطابع النقدي الجريء. وكذلك دراسة إدريس خضراوي لكتاب نادر كاظم في مقال له في مجلة أرشيف الشارح بعنوان: تمثيلات الآخر صورة السود في المتخيل العربي الوسيط.

ومحل الدراسة يقتضي الاستعانة بمؤلفي الغرب الإسلامي لمحاولة الإلمام بجوانب البحث، والحصول على استنتاجات تصب في قالب حيز الغرب الإسلامي في الفترة الوسيطة مما ضيق من سعة الاستفادة منها عمليا في هذا البحث.

بواعث اختيار الموضوع:

وقع الاختيار على الموضوع على خلفية جملة من الأسباب الذاتية والموضوعية:

أما الموضوعية، فمنها:

– كون الموضوع لم يحظ بدراسات وافية وشاملة، وكونه الرّابطة الأساسية بالواقع المعيش؛

– الرغبة في استنباط الصور الذهنية والتخيلات لمجتمع الغرب الإسلامي، كون الباحثة تنتمي إلى الحيز الجغرافيا محل الدراسة، وتكون هذه الصور قطارا لتوجيه المجتمع الحديث، لأن الذي يدفع بهذا الأخير هو الخلفيات القبلية؛

– الرّغبة في الاطلاع على الأحكام التي تتعلق بالأسود في مدوّنات التّراث الإسلامي؛ كالقرآن الكريم وتفاسيره، والأحاديث النبوية وشروحها، ورصد آرائها في قضايا اللّون الأسود؛

– التطلّع لمعرفة الأسباب التي جعلت من الأسود مجالا للنظرات الدونية ومثالا للأحزان في المجتمعات الحديثة؛

– الرغبة في التحقق من دعوى الكتابات التاريخية في الرّحلة والأدب والشعر، بأقلام مستهجنة لصور الأسود والبشر السود، وتهميشهم في ميزان قانون القيم والأخلاق والمبادئ.

أمّا الأسباب الذاتية فتتعلق بميولي لمثل هذه المواضيع الشائكة التي تخلق الجدل العقلي، وتولّد الجرأة الكتابية على مر الزّمان، التي لا تموت ولها ارتباط وثيق بالمستقبل القريب والبعيد، والرّغبة في رصد العوامل التي فاقمت من التصورات النمطية الموجودة في ذهنية الشعوب الحالية ضد العنصر البشري الأسود، والتي لا تزال حيثيات أزماته إلى غاية اليوم.

كان لابد من الإبحار في المدوّنات التراثية الواسعة في مجال الأسود، كونها تهدف إلى تتبع تطور ذهنيات مجتمع الغرب الإسلامي، وما كان إلا العمل بها دون ابتسار، وإعطاء النظرة الشاملة الموضوعية لصورة الأسود بمختلف جوانبها.

ومن منطلق المدونات التراثية المستمِدّة من النصوص التأسيسية المستخدمَة في الدّراسة، يمكن التّحصّل على صور من ناحية واحدة فقط، والدراسة تحتاج لعدة نواح لرسم الصورة الأوضح داخل نسق الدين والتصوف والنوازل والأدب والتاريخ.

الإشكالية الرئيسة والإشكالات الفرعية:

بناءً على ما سبق تتحدد إشكالية البحث التي تتجه إلى مقاربة صورة الأسود في النّصوص التّأسيسية والمدوّنات التّراثية في مجتمع الغرب الإسلامي من خلال القراءات المختلفة فيها ومعرفة مدى التجاوب معها.

ويستتبع تناول هذه الإشكالية، التّطرق إلى الإشكاليات الفرعية التالية:

– كيف كانت صورة الأسود من خلال النّصوص التأسيسية المتأتلة في مدوّنات التراث، ومخرجات قراءاتها التأويلية؟ وهل قادت هذه النصوص وحوافها مسار متخيل العقل الجمعي للغرب الاسلامي في مسار الاستحسان أم مسار الاستهجان، في مختلف مواضعه في ذهنيات الواقع الامتدادي؟

– هل توافقت أحكام الشرع السائدة والحاكمة مع الصّورة الذّهنية التّي رسمتها المدونات بمختلف أنواعها للأسود؟ وهل كان للنصوص التأسيسية والنصوص الحواف تأثير على الكتابات في المجال الفقهي والتأصيلي؟

– ما مدى استلهام الكتابات التاريخية والأدبية لتلك النصوص؟ وهل تولدت وجهات نظر ممتزجة بين هدايات الدين ومستقر الأعراف الاجتماعية؟

منـهج الدراسة:

اعتمدت في هذه الدراسة على قواعد المنهج التّاريخي، في التعاطي مع مختلف الإفادات التاريخية عبر توظيف عدة مصادر، مع الاسترشاد ببعض المراجع والدراسات الحديثة، وذلك لتحديد الصور الذهنية في المدونات التراثية، مع اعتماد آلية الاستقراء

لمتن النصوص، بهدف تحديد صورة الأسود في متخيل المغاربة والأندلسيين حسب أعراف مجتمعاتهم، وكذا آلية المقارنة بين تفسيرات النصوص التأسيسية.

هيكلة البحث:

اقتضت المادة الخبرية للبحث تقسيمه إلى فصل تمهيدي وفصلين أساسيين:

الفصل التّمهيدي: مفهوم الصورة والمتخيل.

الفصل الأول: صورة الأسود في النصوص التأسيسية وشروحها.

الفصل الثاني: صورة الأسود في المدونات التراثية وتمثّلاتها.

في الفصل التّمهيدي تم التطرق لمفهومين مهمين، وهما: مفهوم الصورة ومفهوم المتخيل، كون المصطلحين يصبان في عنوان البحث محل الدراسة، ولمرافقتهما لنا طيلة البحث، ولضرورة ضبط المفاهيم المتعلقة بالبحث.

بعدئذ تمّ ترتيب المدوّنات إلى معالم ثابتة هي النّص القرآني وتفاسيره، كمبحث أوّل والحديث النبوي الشريف وشروحه، كمبحث ثاني، وكان ذلك في الفصل الأول.

تليها النصوص التراثية، وفي طليعتها كتب الفقه مشتملة في طيّها على نصوص النّوازل والقضاء والأحكام والحسبة، ثم كتب التصوّف، وما يقع تحتها من نصوص كرامية ومنقبية، ويليها كتب الأدب وما تقع عليه تسميته من: الأشعار والأمثال والأزجال، وكتب الرحلات، وكل ذلك في الفصل الثاني.

الدّراسة النّقدية:

من الضروري أن يستند أي بحث إلى نصوص مصدرية وأخرى مرجعية، وإن كانت المصادر لها الأهمية الفضلى على أي نصوص أخرى، وقد اشتملت هذه المصار على مادة أفادت كثيرا في بناء الموضوع، بالنظر إلى تنوّعها وتباينها.

من الأهمية بمكان استظهار ما انطوت عليه المصادر من إفادات ساعدت في لملمة أطراف الموضوع، وحل الإشكالات المطروحة:

أولا- قسم المصادر بنوعيها الأصلية والتبعية:

1- كتب الحديث والتفسير:

اعتمد البحث على عدد كبير من آيات الذكر الحكيم، ونصوص الأحاديث النّبوية الّتي تتناسب وطبيعة الموضوع، فكان في طليعتها القرآن العظيم، وكتب التفسير، والتي من أهمها: "جامع أحكام القرآن" للقرطبي، مقارنا مع "المحرر الوجيز" لابن عطية، وما حملاه من تفسيرات لآيات القرآن الكريم. ثم كتب الحديث: الصحيحان للبخاري ومسلم والسنن للترمذي، وكتب شروح الأحاديث: القرطبي في كتابه "المفهم لما أشكل من تلخيص صحيح مسلم"، والمازري في كتابه "المعلم بفوائد مسلم"، وابن العربي في كتابه "عارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي"، وابن بطال في كتابه "شرح صحيح البخاري"، والأبي في كتابه "إكمال إكمال المعلم" ، والسنوسي في كتابه "مكمل إكمال الإكمال".

2- كتب الفقه والنوازل والقضاء:

زخرت كتب النوازل بمادّة بالغة الأهميّة، ومن أهم الكتب المعتمدة في هذا البحث كتاب "المعيار المعرب" للونشريسي، وكتاب نوازل ابن الحاج، وكتاب "مذاهب الحكام في نوازل الأحكام" للقاضي عياض، وكتاب "الجامع" لابن أبي زيد القيرواني.

3- كتب الحسبة:

أفاد البحث كثيرا من كتب الاحتساب، وبخاصة في قضايا البيوع والمعاملات المالية، ومن أهم النصوص المعتمدة، رسالة في آداب الحسبة والمحتسب لابن عبدون، وكتاب آداب الحسبة للسقطي.

4- كتب التصوف:

اقترنت الكتابة المنقبية بإيراد النصوص الكرامية، حيث زودتنا بأحداث أضفت على البحث منحى جديدا في رسم صورة الأسود في المتخيل الصوفي، ومنها التّشوف لابن الزيات، والمستفاد للتميمي، وجامع كرامات الأولياء لإسماعيل النّبهاني، والمعجزات والكرامات لابن تيمية.

5- كتب الأدب:

هي عبارة عن مجاميع نثرية وشعرية وزجلية عكست واقع الثقافات، وقد ساعدت كثيرا في إيضاح صورة الأسود، ومن بينها كتاب أمثال العوام للزّجالي، وديوان ابن الأبار، وديوان القسطلي.

6- كتب البلدان:

يصلح تعبير "وجهان لعملة واحدة" لكتب التاريخ والجغرافيا، فقد احتلت هذه الكتب النصيب الأوفر في استنباط الصور النمطية التي تشكلت عبر رحلات بعض الرحالة من خلال الذهنيات التي عاينوها أو تلك التي صدروا عنها في نظرتهم إلى مختلف الشعوب، ومن ذلك كتاب رحلة ابن خلدون، وكتاب "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق" للإدريسي، ورحلة ابن بطوطة الموسومة بـ "تحفة النظار في غرائب الأمصار".

ثانيا- قسم المراجع والدّراسات الحديثة:

ساعدت المراجع والدراسات الحديثة في بناء البحث، وضبط توجهاته، كما أفادته من النّاحية الشّاملة، وبخاصة في توضيح مختلف المفاهيم الحديثة من تمثّلات ومتخيّل. نذكر منها: "تمثّلات الآخر" لنادر كاظم، و"الصورة الفنية بين حسيتها وإيقاع المعنى" لصباح عباس عنوز، و"مقدمة لدراسة الصورة الفنية" لنعيم اليافي.

صعوبات البحث:

من الصّعوبات التي واجهتني اتّساع محيط المدوّنات بمختلف أنواعها وتداخلها، مما صعّب من مهمة استقرائها واستيفائها، كما صادفت صعوبات في التّعامل مع مدوّنات التفسير والحديث والفقه، تحليلا ومقارنة، لأنها مدونات لها خصوصياتها التي لا يتمكن منها الباحث القادم من خلفية تاريخية بحتة، والأمر نفسه ينسحب على المدوّنات التراثية الأدبية والتاريخية كون هذه التآليف تتباين رؤاها، كما تتفاوت تخريجاتها، على حسب اعتبارات البعد الجغرافي، والتركيبة الاجتماعية...

وأخيرا، لا أملك سوى أن أسأل الله التّوفيق، والحمد لله رب العالمين.

الفصل التمهيدي:

مفاهيم أساسية

أولا: مفهوم الصورة

ثانيا: مفهوم المتخيل

سنتطرق في هذا الفصل إلى بعض المفاهيم الأساسية لمتغيرات البحث، من خلال طرح دراسة نظرية لمصطلح الصورة، وكذا مصطلح المتخيل، بمفاهيمها ومدلولاتها التي تختلف باختلاف وجهات النظر، لكي يسهل فيما بعد التركيز مباشرة على واقع الأسود أو صورة الأسود في متخيل الناس في مدة زمنية محددة وفي أماكن محددة، ومنه قسمنا هذا الفصل إلى فرعين رئيسيين كالتالي:

أولا- مفهوم الصورة:

1-الصورة لغة:

جاء في لسان العرب لابن منظور أن "صورة الفعل كذا وكذا أي هيئته، وصورة الامر كذا وكذا أي صفته، فيكون المراد بما جاء في الحديث انه اتاه في أحسن صفة"[1].

والمُصَوِّرُ "هو الذي صوَّر جميع الموجودات ورتبها فأعطى كل شيء منها صورة وهيئة مفردة يتميز بها على اختلافها وكثرتها"[2].

وقال صاحب الصحاح في معنى الصورة: "وتصورت الشيء: توهمت صورته فتصور لي، والتصاوير: التماثيل"[3].

2-الصورة اصطلاحا:

يصف صباح عنوز الصورة عند الشاعر بأنها "شكل الإحساس لدى المبدع، وهي مشبعة بوجدانه وانفعاله... تومئ الى مهارة الشاعر وتنبئ عن قدرته الفنية، حين يجعل الدلالات التي يبتغيها مرسومة مرئية لدى المتلقي، عبر مهاراته الفنية في التوصل"[1].

---

[1] ابن منظور، لسان العرب، دار المعارف، القاهرة، د.ت، ص23-25.

[2] المصدر نفسه، ص23-25.

[3] اسماعيل بن حماد الجوهري، الصحاح، دار الحديث، القاهرة، 2009، ص717.

تعتبر الصورة في قول الباحث نعيم اليافي "والصّورة من جهة أخرى تكون أفضل أداة للتعبير، وأداة التعبير الوحيدة عن الشخصية وواسطة تفكيرها ورؤاها"[2]، من أقدم الدلالات المعقدة تعريفا فالصورة لغة هي التمثيل المباشر أو المحاكاة الحرفية لموضوع بصري خارجي، حيث ينطبق هذا التعريف على بعض الأنماط التصويرية كالرسوم الخطية والبيانية والأشكال[3].

يرى رنيه ويليك أن الصورة ليست دائما نتاج رؤية بصرية، فهناك صور تتكون فقط من عناصر تجريدية بحتة لا تربطها أية علاقة بالبصر، وهو ما أدى بالنقاد الغربيين المعاصرين إلى تجاوز المفهوم البصري للصورة، حيث يصل الانسان الى مدى كبير في استرجاع الماضي بصورة مرئية[4].

من خلال التعاريف السابقة يتضح أنه من الصعوبة إيجاد تعريف واحد جامع ودقيق للصّورة، لذلك نستطيع أنْ نقول بأنّ الصُّورة هي عبارة عن مزيج من الدّلالات والانعكاسات والتّعابير والتشخيصات والتخيُّلات والأحاسيس الذهنية والتّمثيلات البصرية التي تسقط أبعاد الأشياء في عقل المتلقي وترصد له واقعها وحقيقتها.

تظهر التوجهات الفكرية في شكل صورة ثقافية وتاريخية تنتقل عبر الزمان والمكان وتنتج صور متنوعة على رأسها الصورة النّمطية والأسطورة، ومصطلح النمطية يقترن بتوتر العلاقات بالنسبة للآخر الذي لا يمكن أن تتغير[5].

من العوامل المنتجة للصورة النمطية مجموع التراكمات التي تولدت من عهد انشائها وسيرورتها في المجتمع، ومن ثمة ينتج التفكير المتفق عليه غالبا، ومن أهم

---

[1]صباح عباس عنوز، الصورة الفنية بين حسيتها وايقاع المعنى، دار السلام، لبنان، 2010، ص15.

[2]نعيم اليافي، مقدمة لدراسة الصورة الفنية، منشورات وزارة الثقافة السورية، دمشق، 1982، ص11.

[3]المرجع نفسه، ص41.

[4]رنيه ويليك وأوستن وارن، نظرية الأدب، تعريب: عادل سلامة، دار المريخ، المملكة العربية السعودية، 1992، ص253.

[5]محمد نور الدين أفاية، الغرب المتخيل –صورة الآخر في الفكر الإسلامي الوسيط–، ط1، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، 2000م، ص31.

العوامل المساعدة على تكوين هذه الصورة الثقافة الشعبية من أمثال وقصص وأساطير، والإعلام من كتب وصحافة[1].

ثانيا- مفهوم المتخيل:

1-التعريف اللغوي:

يعرف أحمد مختار عمر المتخيّل من خلال التعريف بالفعل تخيل كالآتي: "تخيّل الشيء: تصوّره وتمثّله أو تخيّل الشيء على غير ما هو عليه"[2].

وقد وردت لفظة المتخيل مرة واحدة في القرآن الكريم في قوله عز وجل: ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُواْ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تسعى﴾[3].

2-التعريف الاصطلاحي:

يستند المتخيّل للبحث عن هذه الخلفيات في دراسة مرجعيّاته، والمنطلقات التي سمحت بظهوره في فترة تاريخية معينة لثقافة معينة، فالعلاقة بين المتخيل ومرجعيّاته غير ثابتة ولا محددة بصفة نهائية، بحيث لا تستطيع أي جماعة بشرية أن تتخلّى عن المتخيّل وذلك لتأسيس وجودها وإعطائه قيمة، كما يقول الباحث نادر كاظم: "فالمتخيّل لا يعني الأوهام أو الصور بالمعنى المادي للكلمة، إنه يعني الدّلالات الكبرى التي تجعل المجتمع يبدو متماسكا ككلّ، وبواسطة هذه الدلالات الكبرى يخلع المجتمع معنى على حياة الأفراد"[4].

وقد أشار أحد الباحثين إلى أن المتخيّل يكون شاملا للأفكار والمعتقدات والتوجهات والتصرفات، فتلتقي الأساطير والحكايات والقصص والأحلام، وكل الإنتاجات

---

[1] يحيى جاد، الصورة النمطية، مجلة قضايا فكرية، على الرابط: http/www.hiramagazine.com

[2] أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة، ط1، عالم الكتب، مصر، 2008، ج1، ص714.

[3] سورة طه، الآية 66.

[4] نادر كاظم، تمثيلات الآخر صورة السود في متخيّل العربي الوسيط، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2004، ص33.

الرمزية التي تتخطى ضوابط العقل، مع حسبان المدى الزمني الذي يقوم بتنميط الصورة وجعلها تنطبق[1].

إنّ مجال اشتغال المتخيل يقوم على الجانب الشفوي من التراث، ويكون مخبوءا في الذاكرة الجماعية، ويؤثر على الأفراد والجماعات بصفة مادية من خلال الممارسات المادية، والمتخيل ذو بعد اجتماعي خارجي ونفسي داخلي معا، بحيث يزودنا بسيرورة العالم الخارجي، ويؤثر على الحياة النفسية كونه مُكَوَّناً ومُكوّنَاً في الوقت نفسه، بحيث يتكون في ثقافة ما بفعل عدة ظروف ويكوّن الهوية الخاصة بهذه الثقافة، كما أن سلوكيات الفرد تتحكم فيها الأنساق الثقافية المرتبطة بالنّمطية لرسم صورة واضحة لثقافة المجتمعات وعلى حد قول الباحث نادر كاظم:" ولهذا فإن مصطلح المتخيل الثّقافي يستخدم بوصفه ذاكرة جمعية، وخزّانا رمزيا: وشبكة واسعة من الصور والثيمات والمرويات والخطابات والقيم والرموز المتداخلة، والتي هي بمثابة الإطار المرجعي لهوية المجتمع الثقافية"[2].

[1]وسام حسين جاسم العبيدي، صورة المجنون في المتخيل العربي منذ العصر الجاهلي حتى القرن الخامس هجري، ط1، دار الروافد الثقافية، بيروت، لبنان، 2016، ص17.

[2]نادر كاظم، المرجع السابق، ص39.

الفصل الأول:

صورة الأسود

في النصوص التأسيسية وشروحها

أولا: صورة الأسود في نصوص القرآن الكريم وتفاسيره

ثانيا: صورة الأسود في نصوص السنة النبوية وشروحها

تمهيد:

اختلف أهل العلم فيما إذا كان كل من البياض والسواد في القرآن يراد به حقيقته أم أنّ له معنى آخر زائد على حقيقته، وبعض من آيات القرآن الكريم يوصف فيها البياض بالنّور والسّواد بالظلمة لأن البياض مناسب للنّور والسّواد مناسب للظّلمة أي سواد اللّيل. من كان من أهل نور الحق وُسم ببياض اللّون وإسفاره وإشراقه، ومن كان من أهل ظلمة الباطل وُسم بسواد اللّون، سُوّدت صحيفته وأحاطت الظلمة به من كّل جانب.

في بداية الخوض في هذه المسألة يتطلب فحصا متأنيا لآيات القرآن الكريم، التي تأتي على ذكر السّواد، مع شروح هذه الآيات، بحيث نعقد مقارنة بين مفسّريْن ابن عطية في كتابه المحرر الوجيز والقرطبي في كتابه الجامع لأحكام القرآن.

أمّا فيما يخص الأحاديث النبوية الشريفة عن السّواد فتتفاوت من حالة استهجان إلى حالة استحسان، على حسب شروح مفسري الحديث، فهناك أحاديث نبوية تتحدث عن السّواد من ناحية الجمال والقبول والفائدة، وأحاديث أخرى تصف السواد من ناحية سلبية يحسن التّخلي عنها واستبعادها.

أولا– صورة الأسود في نصوص القرآن الكريم وتفاسيره:

لم تخل آيات القران الكريم من الكلمات الدالة على اللّون الأسود، كما اختلفت دلالاتها وتعابيرها، وظهر ذلك جليا في تفاسير الآيات بسياقاتها المختلفة، حيث يعتبر اللّون الأسود ثالث الألوان تكرارا في القرآن الكريم، وورد بمشتقّاته سبع مرّات في القرآن الكريم مفردا، جمعا، معرّفا ومنكرا.

وتمَّ تسليط الضّوء على مختلف تفسيرات الغرب الإسلامي للتّعمق في شروح الآيات المتضمّنة لمصطلح الأسود وإعطاء مدلولات توضّح حقيقة الأسود كلون في السّياق.

1- دلالة الاستهجان:

بعض من آيات الله تعالى الدالة على استهجان السواد وإبراز موضعه من النصيب الاستهجاني:

في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [آل عمران: ١٠٦-١٠٧].

يفسرها ابن عطيّة في كتابه المحرّر الوجيز: بأن إشراق الوجوه واستنارتها وبشرها برحمة الله يعبر عنها بالبياض، وأما السواد فيعبر عنه بالكدر والهم والعذاب، والحال الذي ينزل بمرتكبي الذّنوب وما ينزله الله بهم على جهة التشويه والتمثيل بهم بحشرهم زرقا[15].

فهنا يفسر السّواد بحالة استنفار ودلالة على غضب الله تعالى والحالة السيئة جراء أعمالهم في الدنيا ونقص حسناتهم وكثرة معاصيهم، وهذا في يوم القيامة التي لا ينفع فيها الندم، أما البياض فيفسر بأنه اطمئنان للنفس وثقة في أعمالها وحسن خاتمتها وبشرى لصاحبها بنيل الرضا من عند الله تعالى.

ويفسرها القرطبي في كتابه الجامع لأحكام القرآن أنّ النّاس عندما يبعثون يوم القيامة من قبورهم تكون وجوه المؤمنين منهم مبيضة ووجوه الكافرين مسودّة أي أنّ المؤمن عِنْدَ قِرَاءَةِ كِتَابِه، فَرَأَى حَسَنَاتِهِ اسْتَبْشَرَ وَابْيَضَّ وَجْهُهُ، وَإِذَا قَرَأَ الْكَافِرُ وَالْمُنَافِقُ كِتَابَهُ فَرَأَى فِيهِ سَيِّئَاتِهِ اسْوَدَّ وَجْهُهُ وكذلك عِنْدَ ترجيح حسناته في الْمِيزَانِ ابْيَضَّ وَجْهُهُ، وَإِذَا رَجَحَتْ سَيِّئَاتُهُ

[15] ابن عطية، أبو محمد عبد الحق الأندلسي، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، دار ابن حزم، بيروت، د.ت، ص340.

اسْوَدَّ وَجْهُهُ، وكذلك عند المؤمنين تَصِيرُ وُجُوهُهُمْ بيضاء كالثّلج، بحيث لا يستطيع المنافقون السُّجُودِ فَتَسْوَدُّ وُجُوهُهُمْ[16].

في تعريف هذا اليوم بحصول بياض وجوه، وسواد وجوه يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ يُفيد تهويل شأن ذلك اليوم، فهو يوم عظيم، ينقسم فيه الناس إلى طائفتين وفئتين وحالين، فهؤلاء تبيض وجوههم، وهؤلاء تسود وجوههم، ولا شك أن هذا اليوم عظيم

المعنى هنا بأن البياض من صفة المؤمن التقي الذي تثقل موازينه يوم القيامة أما عن السواد فهو صفة الكافر العاصي خفيف الموازين كثير السيئات.

ويبقى هذان التفسيران على وفاق في مسألة استحسان البياض الذي يعبر عن النور الإيمان والهداية والمكافأة واعتباره بشرى لطريق الجنة، واستهجان السواد الذي يعبر به عن الكافر والمنافق ومرتكب الكبائر والعاصي ووعيده بمثوى النار.

وفي آية أخرى تدل على استهجان السواد في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٦٠].

حيث يفسرها ابن عطية على أنّ لون وجوههم يتغير ويسود، يظهر همهم ويظهر كآبتهم[17]، ويقصد بالاربداد هنا بالسّواد الشديد المختلط بالكدر والقنوط والغضب.

ويفسرها القرطبي بأن السّواد يقترن بمن غضب الله تعالى عنهم[18].

يشرح المفسران معنى السّواد هنا بشدة الكآبة الظاهرة على الوجه، جراء الغضب الشديد لله عليهم، ونقمته وعدم الرضا، فهنا الأسود يأتي من الجهة السّلبية لصورته. وَابْيِضَاضُ الْوُجُوهِ إِشْرَاقُهَا بِالنَّعِيمِ. وَاسْوِدَادُهَا هُوَ ما يرهقها من العذاب الأليم.

---

[16]القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري، الجامع لأحكام القران والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان، تحقيق: عبد الله المحسن التركي، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت لبنان، 1427هـ-2006م ج15، ص46.

[17]ابن عطية، المصدر السابق، ص1623.

[18]القرطبي، المصدر السابق، ج1، ص296.

وفي آية يصف فيها الله مرتكبي السيئات في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [يونس: ٢٥-٢٧].

ويندرج شرحها في كتاب المحرر الوجيز في قول بأنّ القطع جزء من زمان اللّيل، وسواده، واتّسام وجوه الكافرين بقِطع مِنَ اللَيْلِ المظلم الحالك[19].

ومقارنة مع كتاب الجامع لأحكام القرآن في الآية الكريمة أعلاه يشرح كلمة أغشيت بألبست، والظلام حال من اللّيل وقد ألبست وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ[20].

وفي آية أخرى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾﴾ [النحل: ٥٨].

يشرحها ابن عطية بأنّها عِبارَةٌ عَنِ العُبُوسِ الَّذِي يَلْحَقُ المَغْمُومَ، وإعلاء وجهه بالسواد والهم وذهاب إشراقته، ويصبح كظيم الوجه يختفي وجْهَهُ وهَمَّهُ بِالأُنْثى سوادا[21].

بينما يفسرها القرطبي بأنّ عند علم أحدهم بقدوم الأنثى في بيته يتغير وجهه وتعبير السّواد هنا عن الغم وتلقي المكروه والتّعبير عن الكظيم الذي يخفي حزنه فيسودّ وجهه[22].

هنا يقترن اللّون الأسود بشدة الحزن والتعبير عن عدم الرضى والتعبير عن الحالة الكئيبة التي وصف بها الشخص المعني بأمر لم يقتنع به. لبيان الحالة النفسية لأهل الجاهلية المتسمة بالسواد لشدة مقتهم لازدياد المولودة الأنثى وكأنَّ ذلك السواد صار ملتَمسًا في الوجوه.

[19] ابن عطية، المصدر السابق، ص906.
[20] القرطبي، المصدر السابق، ج9، ص83.
[21] ابن عطية، المصدر السابق، ص1101.
[22] القرطبي، المصدر السابق، ج 9، ص249.

وفي آية أخرى قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحۡمَٰنِ مَثَلٗا ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٌ ١٧﴾ [الزخرف: ١٧].

يفسّرها القرطبي بِأَنَّهُ إذا وُلِدَتْ لَهُ بِنْتٌ أصبح وجهه مسودّا وحَزِينا، وعبر به بعدم الرضى وبطلان الحجّة، لأنه أنكر فضل الله بنعمته عليه[23].

كما يلاحظ تفسير الآية في استنكار قدوم الأنثى وقرن هذا الاستنكار باسوداد الوجوه وعقب بكلمة كظيم والتّي تعني حزين، وبذلك إهانة للنفس البشرية واستعلاء على الحكمة والإرادة الإلهية، وقد وصفه القران الكريم وتلك الحالة من الاكتئاب والحزن بعدم التحضر وسوء الفهم المستقيم، في هذه الآية قيمة إنسانية بعدم التفريق بين الذكر والأنثى وخير دليل أن دين الإسلام قد كرم المرأة وأن قيمة الانسان ليست في جنسه بل في تهذيبه وايمانه ومعاملته واستقامة تفكيره.

2- دلالة الاستحسان:

وفي آيات من كتاب الله تعالى في ذكر اللّون الأسود من الناحية الوصفية والفصل في القضايا كالآية في سورة البقرة تتحدث عن الصيام وشرعيته في بدايته من طلوع الفجر المقترن بمطلع الشمس إلى غروبها، وفي وصف للجبال والذي يؤتى بسرور النظر الى خلق الله والتدبر فيه.

في سورة البقرة قال تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمۡ لَيۡلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمۡۚ هُنَّ لِبَاسٞ لَّكُمۡ وَأَنتُمۡ لِبَاسٞ لَّهُنَّۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَخۡتَانُونَ أَنفُسَكُمۡ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡ وَعَفَا عَنكُمۡۖ فَٱلۡـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبۡتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ مِنَ ٱلۡفَجۡرِۖ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيۡلِۚ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمۡ عَٰكِفُونَ فِي ٱلۡمَسَٰجِدِۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقۡرَبُوهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ١٨٧﴾ [البقرة: ١٨٧].

[23] القرطبي، المصدر السابق، ج 10، ص116.

قصد ابن عطية في تفسيره للآية القرآنية أعلاه كلمة الخيط كاستعارة وتشبيه أولا ورقة السواد الحاف به ويقصد به اللون والمراد فيما قاله جميع العلماء بياض النهار وسواد الليل، حيث صنع بعض الناس خيطين أبيض وأسود، الابيض من طلوع الشمس واخره غروبها، والغاية من ذكر اللون الاسود في هذه الآية هو الفصل في قضية الصيام ان كان في الليل أم في النهار[24].

ويفسرها القرطبي بأن المقصود من الخيط الأسود والخيط الأبيض سواد الليل وبياض النهار وقد أدرج في تفسيره بعضا من أبيات الشعر: الْخَيْطُ الاَبْيَضُ ضَوْءُ الصُّبْحِ مُنْفَلِقٌ... وَالْخَيْطُ الاَسْوَدُ جُنْحُ اللَّيْلِ مَكْتُومُ؛ وَالْخَيْطُ فِي الكلام عبارة عن اللَّوْنِ[25].

وفي آية أخرى يتم ذكر اللّون الأسود لغاية الوصف الجمالي ويعبر عن شدة السواد بمصطلح الغربيب، والعرب إذا وصفوا الأسود بكثرة السواد، قالوا: أسود غربيب.

وعندما نجيل ببصرنا من الجبال المتعددة الألوان إلى الجبل الأسود الغربيب أو منه إلى الجبال ذات الألوان المتعددة نستشعر تقابلاً فينبعث السرور في نفسونا.

في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾﴾ [فاطر: ٢٧].

يبقى دائما وجه المقارنة بين تفسيري ابن عطية والقرطبي:

حيث يفسرها ابن عطية أن غرابيب سود لفظان لمعنى واحد، ودعم شرحه بقول النَبِيُّ صلى الله عليه وسلم: "إنَّ اللهَ يُبْغِضُ الشَيْخَ الغِرْبِيبَ"، أيِ الَّذِي يَخَضِبُ بِالسَوادِ[26].

[24]ابن عطية، المصدر السابق، ص167.

[25]القرطبي، المصدر السابق، ج 8، ص277-279.

[26]ابن عطية، الصدر السابق، ص1551.

ويشرحها القرطبي: بأن الْغِرْبِيبُ الشَّدِيدُ السَّوَادِ، وَالْعَرَبُ تَقُولُ لِلشَّدِيدِ السَّوَادِ الَّذِي لَوْنُهُ كَلَوْنِ الْغُرَابِ أَسْوَدُ غِرْبِيبٌ[27].

ورد في القرآن الكريم اللّون الأسود كمقياس للحزن والخوف والكدر والظلام الدائم يوم القيامة، كما خصصه في حالة استحباب وقوة في آيات مختلفة من كتابه العزيز المذكورة أعلاه وذلك أنه سبحانه وتعالى أنعم علينا بنعم الألوان وصياغتها كل حسب غاياته، ففي آيات وصف السواد وقرنه تعالى بأحوال الحزين والمنافق والكافر ومرتكب المعاصي ووصف النار وأهلها.

والسّواد مخالف لسائر أنواع السواد، وهو سواد يدل على الجهل بالله والكذب على الله، والجهل ظلمة، والظلمة تتخيل كأنه سواد، فسواد قلوبهم أوجب سواد وجوههم وآيات للفصل في قضية صيام الليل أو النهار ووصف منظر الجبال المختلفة ألوانها. ومنه يستنتج أن القران الكريم فيه اعجاز في وصف الألوان وإبراز دلالاتها، من ناحية استحبابها أو العزوف عنها وشرح دلالة الأسود فيه.

[27]القرطبي، المصدر السابق، ج1، ص437.

ثانيا- صورة الأسود في نصوص السنة النبوية وشروحها:

نأتي الآن لذكر بعض الأحاديث النبوية التي اخترت التمثيل بها من مجاميع البخاري ومسلم والترمذي، وهي تختلف من دلالة استحسان إلى دلالة استهجان للون الأسود. واظهار قيمته ومرجعية العمل به من زوايا مختلفة.

1- دلالة الاستهجان:

نصّ الحديث كما في صحيح مسلم: أُتِيَ بأَبِي قُحَافَةَ يَومَ فَتْحِ مَكَّةَ وَرَأْسُهُ وَلِحْيَتُهُ كَالثَّغَامَةِ بَيَاضًا، فَقَالَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ: "غَيِّرُوا هذا بشيءٍ، وَاجْتَنِبُوا السَّوَادَ "قوله صلى الله عليه وسلم واجتنبوا السواد امر باجتناب السواد وكرهه جماعة منهم علي بن ابي طالب ومالك قال الشيخ رحمه الله وهو الظاهر من هذا الحديث وقد علل ذلك لأنه من باب التدليس على النساء وبانه سواد في الوجه فيكره لأنه تشبه بسيم أهل النار وقد روى ابو داود أنه صلى الله عليه وسلم قال يكون في آخر الزمان قوم يسبغون بالسواد لا يدخلون الجنة ولا يجدون ريحها[1].

فقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بتغيير الشّيب، بشرط تجنب السّواد، وتوعد من يصبغون لحاهم بالسّواد بأنهم لا يشمون رائحة الجنة، وهذا يدل على أن الصّبغ بالسّواد من كبائر الذنوب، لأنها مضادة لحكمة الله تعالى التي خلق الخلق عليها، فإنه إذا حوَّل شعره الأبيض إلى السّواد، يكون بذلك قد خالف الحكمة التي جعل الخلق عليها حيث أنه بالفطرة يبيض الشعر عند الكبر بعد السواد.

وعن أبي ذر الغفاري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "إذا قامَ أَحَدُكُمْ يُصَلِّي، فإنَّه يَسْتُرُهُ إذا كانَ بيْنَ يَدَيْهِ مِثْلُ آخِرَةِ الرَّحْلِ، فإذا لَمْ يَكُنْ بيْنَ يَدَيْهِ مِثْلُ آخِرَةِ الرَّحْلِ، فإنَّه يَقْطَعُ صَلاتَهُ الحِمارُ، والْمَرْأَةُ، والْكَلْبُ الأسْوَدُ". قُلتُ: يا أبا ذَرٍّ، ما بالُ الكَلْبِ

[1] القرطبي، أبو العباس أحمد بن عمر الأنصاري، المفهم لما أشكل من تلخيص صحيح مسلم، تحقيق: عبد الهادي التازي، ط1، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، 1424هـ/2004، ج1، ص696.

الأَسْوَدِ مِنَ الكَلْبِ الأَحْمَرِ مِنَ الكَلْبِ الأَصْفَرِ؟ قالَ: يا ابْنَ أَخِي، سَأَلْتُ رَسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ كما سَأَلْتَنِي فقالَ "الكَلْبُ الأَسْوَدُ شيطانٌ"[1].

يقول مسلم في كتاب المفهم عن قوله صلى الله عليه وسلم تقطع الصلاة المرأة والحمار والكلب، قال الشيخ وفقه الله اختلف الناس في مرور هؤلاء بين يدي المصلين فقال مالك وأكثر الفقهاء لا يقطعون الصلاة. وقال ابن حنبل يقطع الصلاة الكلب الأسود وفي قلبي عن الحمار والمرأة شيء، ووجه قوله هذا ما وقع في التقييد بالأسود في بعض طرق مسلم ولم يوجد ما يعارض هذا ووجد التعارض عنده فيما سواه فأشكل عليه.[2]

وفي حديث آخر أمرَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بقتلِ الأسودَيْنِ في الصَّلاةِ: الحَيَّةُ، والعَقْرَبُ.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اقتلوا الأسودَين في الصلاة: الحيَّة، والعقرب».[3]

حيث أنه من حق المسلم على نفسه حفظها من كل الأذى، وهو ما اهتم به الإسلام، وقد سمّيا هنا بالأسوَدَينِ بتَغليبِ الحية على العقربِ، وذلك أنَّ الحيَّةَ تُسمى بالأَسوَدِ، ولا يُعرَفُ السّواد في العقرَبِ، وقيل: بل إنَّ عَقربَ المدينةِ يميل إلى السّواد، لذلك أمر النبي صلى الله عليه وسلم بقتل الأسودين في الصّلاة الحية والعقرب، حيث على المصلِّي قتلهما خوفا على نفسه وعلى غيره من الأذى[4].

---

[1]مسلم، صحيح مسلم بشرحه المسمى إكمال إكمال المعلم لمحمد بن خليفة الوشتاني الأبي، ومكمل إكمال الإكمال لمحمد بن محمد بن يوسف السنوسي الحسني، صححه محمد سالم هاشم، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت، رقم الحديث 510، ص365.

[2]المازري، أبو عبد الله محمد بن عمر، المعلم بفوائد مسلم، تحقيق محمد الشاذلي النيفر، ط2، الدار التونسية للنشر تونس، 1408هـ/1988م، ص405-406.

[3]الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى، سنن الترمذي، تحقيق: بشار عواد معروف، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1996، باب الصلاة، رقم 390.

[4]ابن العربي، عارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، د.ت، ج2، ص182.

عن أبي هريرة عن النّبي صلى الله عليه وسلم قال:" أُوقِدَ على النارِ ألفَ سنةٍ حتى احمرَّت ثم أُوقِدَ عليها ألفَ سنةٍ حتى ابيضَّت ثم أُوقِدَ عليها ألفَ سنةٍ حتى اسوَدَّت فهي سوداءُ مظلمةٌ"[1].

فسّرهُ الخبير الفلكي الأردني عماد مجاهد من الناحية العلمية وسلم في كتاب الكون طريقي الى الله تفسيرا علميا، حيث ثبت الآن بأن لون المادة يتعلق بعدد الالكترونات السطحية نفخها يحولها من لون لآخر، وثبت بأن حرارة النجوم وألوانها مرتبط ببعضه كالنجوم العملاقة الحمراء، وإذا زادت الحرارة تحولت النجوم من اللون الأبيض إلى اللون الأسود، فمثلا مركز الشمس مظلم، وهكذا فان الثقوب السوداء أو (النجوم السوداء) لا تضيء، ويؤكد قول الرسول صلى الله عليه وسلم بأنها مظلمة لا يضيء شررها، لأن سرعته تصبح أعلى من سرعة الفوتونات الضوئية وجاذبيته الكبيرة تجعله يجذب الضوء لداخله ويمنعه من الانطلاق فلا يرى. حيث يعترف العالم بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلم بأنّ الشّعاع الأسود لا يضيء[2].

وفي كتاب صحيح البخاري عن عبد الله بن عمر في رُؤْيَا النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في المَدِينَةِ: "رَأَيْتُ امرَأَةً سَوْدَاءَ ثَائِرَةَ الرَّأْسِ، خَرَجَتْ مِنَ المَدِينَةِ حتَّى نَزَلَتْ بمَهْيَعَةَ فَتَأَوَّلْتُهَا أنَّ وبَاءَ المَدِينَةِ نُقِلَ إلى مَهْيَعَةَ. وهي الجُحْفَةُ"[3].

انتشرت الأوبئة في المدينةُ النَّبويَّةُ قبْلَ الهجرةِ، وقد أصيب بها بعض الصحابة في أوَّلِ الهجرةِ، ولكنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالَى رفع هذا الوباءَ من أجْلِ الرسول صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والمُؤمِنينَ، وجعَلَ دارَ هِجرتِهم سالِمةً من الآفاتِ، وجاءت البُشْرى للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بذلك في مَنامِه ورؤيا الأنبياءِ حَقٌّ.

---

[1] المصدر نفسه، ج9، ص60.

[2] عماد مجاهد، الكون طريقي الى الله، دروب للنشر والتوزيع، الأردن، 2010، ص131.

[3] البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله وسننه وأيامه، نشر بعناية: محمد زهير الناصر، ط1، دار طوق النجاة، 1422هـ، رقم 7039، ص3111.

يأتي شرح صحيح البخاري للحديث النّبوي بأنّ الأسود هنا لا يعني وجهها ولكن هو مثال ضرب فبعض المعبرين يجعل وجه التمثيل في ذلك أن يشتق من اسمها السوء والداء لأن اسمها يجمع ذلك عليه السلام ثقيل لعدوان أهلها وأذاهم للناس والجحفة قليلة البشر، وثوران رأسها من الحمى وعبر عن حالها في النّوم بارتفاع شعر رأسها، قيل له الدّاء الذي يسوء ويثير الشعر يخرج من المدينة حيث ذكر قول علي بن أبي طالب عن العابر فأي شيء دلت عليه السّوداء في أكثر وجوهها فهو مكروه فربما دلّت على الدّنيا الحرام والزّوج الحرام[1].

2- دلالة الاستحسان:

في كتاب صحيح البخاري: "عن عبد الله بن مسعود قال: كُنَّا مع النَّبيِّ في قُبَّةٍ فَقالَ: أتَرْضَوْنَ أنْ تَكُونُوا رُبُعَ أهْلِ الجَنَّةِ؟ قُلْنَا: نَعَمْ، قالَ: أتَرْضَوْنَ أنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أهْلِ الجَنَّةِ؟ قُلْنَا: نَعَمْ، قالَ: أتَرْضَوْنَ أنْ تَكُونُوا شَطْرَ أهْلِ الجَنَّةِ؟ قُلْنَا: نَعَمْ، قالَ: والَّذي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بيَدِهِ، إنِّي لَأَرْجُو أنْ تَكُونُوا نِصْفَ أهْلِ الجَنَّةِ؛ وذلكَ أنَّ الجَنَّةَ لا يَدْخُلُهَا إلَّا نَفْسٌ مُسْلِمَةٌ وما أنتُمْ في أهْلِ الشِّرْكِ إلَّا كَالشَّعْرَةِ البَيْضَاءِ في جِلْدِ الثَّوْرِ الأسْوَدِ، أوْ كَالشَّعْرَةِ السَّوْدَاءِ في جِلْدِ الثَّوْرِ الأحمر[2].

وفي صحيح البخاري يذكر حديث النبي صلى الله عليه وسلم اللّون الأسود من جهة استحباب واستحسان وشفاء للمريض حيث يذكر صحيح البخاري :"عن عائشة أم المؤمنين : خَرَجْنا ومعنا غالِبُ بنُ أبْجَرَ، فَمَرِضَ في الطَّرِيقِ، فَقَدِمْنا المَدِينَةَ وهو مَرِيضٌ، فَعادَهُ ابنُ أبِي عَتِيقٍ، فَقالَ لَنا: علَيْكُم بهذِه الحُبَيْبَةِ السَّوْداءِ، فَخُذُوا منها خَمْسًا أوْ سَبْعًا فاسْحَقُوها، ثُمَّ اقْطُرُوها في أنْفِهِ بقَطَراتِ زَيْتٍ، في هذا الجانِبِ وفي هذا الجانِبِ؛ فإنَّ

[1] ابن بطال، أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك، شرح صحيح البخاري، ضبط نصه وعلق عليه أبو تميم ياسر بن إبراهيم، ط2، مكتبة الرشد، الرياض، السعودية، 1423هـ/2003م، ج9، ص552.

[2] البخاري، المصدر السابق، رقم 6528، ص2883.

عائِشَةَ حَدَّثَتْنِي: أَنَّها سَمِعَتِ النَّبيَّ ﷺ يقولُ: إنَّ هذِه الحَبَّةَ السَّوْداءَ شِفاءٌ مِن كُلِّ داءٍ، إلّا مِنَ السّامِ. قُلتُ: وما السّامُ؟ قالَ: المَوْتُ[1].

شرح الحديث في كتاب شروح صحيح البخاري بذكره الْحَبَّةُ السَّوْدَاءُ الشُّونِيزُ[2]. يدلّ عموم هذا الحديث على الانتفاع بالحبة السوداء في كل داء إلاّ الموت، وقد يكون من الأمراض ما يصلح للمريض شربها أيضًا ويكون منها ما يصلح خلطها ببعض الأدوية فيكون الانتفاع بها[3].

عن عدي بن حاتم الطائي: لمَّا نَزَلَتْ: ﴿حتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الخَيْطُ الأبْيَضُ مِنَ الخَيْطِ الأسْوَدِ﴾ [البقرة: 187] عَمَدْتُ إلى عِقَالٍ أسْوَدَ، وإلَى عِقَالٍ أبْيَضَ، فَجَعَلْتُهُما تَحْتَ وِسَادَتِي فَجَعَلْتُ أنْظُرُ في اللَّيْلِ، فلا يَسْتَبِينُ لِي، فَغَدَوْتُ علَى رَسولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فَذَكَرْتُ له ذلكَ فَقالَ: إنَّما ذلكَ سَوَادُ اللَّيْلِ وبَيَاضُ النَّهَارِ[4].

تأكيد تفسير الرسول صلى الله عليه وسلم للآية الكريمة أعلاه أن الرِجَال إِذَا أَرَادُوا الصَّوْمَ، رَبَطَ أَحَدُهُمْ في رِجْلِهِ الْخَيْطَ الأبْيَضَ وَالْخَيْطَ الأسْوَدَ، وَلا يَأْكُلُ ويشرب حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُ رُؤْيَتُهُمَا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ بَعْدُ: مِنَ الْفَجْرِ فَعَلِمُوا أَنَّهُ يقصد بالخيط الأبيض الصبح المصدق والخيط الأسود هو اللّيل.[5]

وروى مسلم عن لسان الراوي: النواس بن سمعان الكلابي عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال: "يُؤْتَى بالقُرْآنِ يَومَ القِيامَةِ وأَهْلِهِ الَّذِينَ كانُوا يَعْمَلُونَ به، تَقْدُمُهُ سُورَةُ

---

[1] المصدر نفسه، ص2566.

[2] يشرح البخاري مصطلح "الشونيز": قال إبراهيم الحربي في غريب الحديث عن الحسن البصري إنها الخردل. وحكى أبو عبيد الهروي أنها ثمره البطم بضم الموحدة وسكون المهملة، واسم شجرتها الضرو. وقال الجوهري هو صمغ شجره تدعى الكمكام.

[3] ابن بطال، المصدر السابق، ص397.

[4] البخاري، محمد بن إسماعيل، الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله وسننه وأيامه، تحقيق: محب الدين الخطيب، ط1، المكتبة السلفية، القاهرة، 1400هـ، ج3، رقم 1916، ص950.

[5] ابن بطال، المصدر السابق، ص36.

البَقَرَةِ وآلُ عِمْرانَ، وضَرَبَ لهما رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ ثَلاثَةَ أمْثالٍ ما نَسِيتُهُنَّ بَعْدُ؛ قالَ: كَأنَّهُما غَمامَتانِ، أوْ ظُلَّتانِ سَوْداوانِ، بيْنَهُما شَرْقٌ، أوْ كَأنَّهُما حِزْقانِ مِن طَيْرٍ صَوافَّ تُحاجَّانِ عن صاحِبِهِما"[1].

ورد تفسيره في كتاب المعلم بفوائد مسلم بأن النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم شبَّه سُورةَ البقرةِ وآلِ عِمرانَ كأنَّهما غَمَامَتَانِ مفردها غمامة وهي السَّحابةُ البيضاءُ، وظُلَّتَانِ تُظِلَّانِ صاحبَهما عن حَرِّ الآخرة ووصَفَ هاتينِ السَّحابتينِ بالسّوادِ؛ لِكَثَافَتِهِما، وارْتِكامِ بعضِهما على بعض بينها ضَوْءٌ، ونُورُ الشَّرْقِ هو الشَّمسُ، وفي ذلك تَنبيهٌ على أنَّهما مع الكَثافةِ لا يَستُرانِ الضَّوْءَ[2].

وفي كتاب آخر بعنوان صحيح مسلم بشرحه المسمّى إكمال الإكمال: وصفت الغمامتان بالسّواد لتكاثفهما وتراكب بعضهما على بعض فهو أنفع ما يكون من الإظلال قوله بينهما شرق ومعناه الضوء[3].

تأتي هتان السّورتان من القرآن الكريم في شكل عمل يرفع الى الله ويكون شفيعا لصاحبه لا في شكل مخلوق، حيث ينفي كل مفسري القرآن أن تتحوّل السّورتان إلى شيء مخلوق لأنه كلام الله، بل هذه القراءة ينشئها الله سبحانه تعالى غمامتين.

وبالتالي فقد جاء مصطلح السّواد في سياق الغلبة والقوة والحماية التي تدافع عن صاحبها وتظلّله وتشفع له يوم القيامة.

وأُجدي التّذكير بما رواه جابر بن عبد الله رضي الله عنه عن النّبي صلى الله عليه وسلم قال: "يا أيُّها النَّاسُ ألا إنَّ ربَّكم واحدٌ وإنَّ أباكم واحدٌ ألا لا فضلَ لِعَربيٍّ على

---

[1] مسلم، المصدر السابق، رقم 805، ص554.

[2] المازري، المصدر السابق، ج1، ص46.

[3] الأبي، محمد بن خليفة الوشتاني، شرح صحيح مسلم المسمى إكمال إكمال المعلم، صححه محمد سالم هاشم، دار الكتب العلمية، د.ت، ج3، ص151.

أعجميٍّ ولا لعَجميٍّ على عربِيٍّ ولا لِأحمرَ على أسودَ ولا لِأسودَ على أحمرَ إلاَّ بالتَّقوى ان اكرمكم عند الله أتقاكم " البيهقي[1].

يبيّن النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في هذا الحديثِ عند خطبته في حَجَّةِ الْوَداعِ للناس ان لا فضل لهم عن آخرين إلا بتَقْوى اللهِ عزَّ وجلَّ. وفي الحديثِ: بيانُ الأصْلِ الصَّحيحِ الذي يَتَفاضَلُ به النَّاسُ، وهو التَّقْوى والعَمَلُ الصالِحُ، وأنَّ جَميعَ النَّاسِ مُتَساوونَ أمامَ الشَّرعِ[2].

بيّن الرسول صلى الله عليه وسلم في حديثه أعلاه عن عدم تفاضل الناس على أساس اللون، وأن التفاضل بينهم يأتي بالتنافس في التقوى وعمل الخير لا بالشكل واللون ولا باللغة، فلون بشرة الانسان الأسود هنا ليست له أي دلالة استهجان ولا استحقار لذوي البشرة السوداء، بل بالعكس فإن الناس متساوون وقد جمعهم بمنزلة واحدة وإن التّقوى وحسن العمل هو الفارق المفاضل بينهم.

[1]أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين الألباني، غاية المرام في تخريج أحاديث الحلال والحرام، ط1، 1980م، ص190.

[2]مجموعة من الباحثين بإشراف الشيخ عَلوي بن عبد القادر السقاف، الموسوعة العقدية، موقع الدرر السنية، على الرابط: www.dorar.net، ج8.

خلاصة الفصل:

ذُكر اللّون الأسود في القرآن الكريم والحديث الشريف في العديد من الآيات والأحاديث النبوية الشريفة، وكما رأينا لم ينحصر مفهومه في معنى واحد، كما لم يعبر عن دلالة واحدة، فتراوحت دلالاته بين الاستحسان والاستهجان، حيث يأتي مدلول الأسود حسب النّص المتضّمن له، وحسب السّياق المنبثق من هذا النص، وكان ذلك حسب شروح المفسرين والعلماء، حيث يُستنتج من خلال التفاسير والشّروحات أعلاه أنه لم يقترن ذكر اللّون الأسود في مواضع الاستهجان ولا مرّة بلون بشرة الإنسان، بل اقترن في أغلب المواضع في آيات الذّكر الحكيم بحال وجوه الكفار والمنافقين والمجرمين، وصفا لأهوالهم يوم القيامة ندما وهلعا وحزنا من شدة العذاب يوم القيامة، وتعبيرا عن الاستياء من ميلاد الأنثى وشدة الحزن لذلك، ولعل من إعجاز القرآن الكريم أن جاءت عبارة "وإذا بشر بالأنثى" تعظيما لشأن الأنثى في نفس موضع استهجان رد فعل متلقي هذه البشرى.

الفصل الثاني:

صورة الأسود في المدونات التّراثية وتمثُّلاتها

أولا: صورة الأسود في المدونة الفقهية

ثانيا: صورة الأسود في المدونة الصوفية

ثالثا: صورة الأسود في المدونة الأدبية

تمهيد:

في هذا الفصل نروم الوقوف على دلالات مصطلح الأسود في المدوّنات التراثية الفقهية والصوفية والأدبية، أي أننا سنخص بالذكر نظرة الشعوب وتصوراتها الذّهنية للّون الأسود كبشرة للإنسان وكلون يعبّر عن الكرب والحزن والشر والتّعاسة والظلام وانسداد للأفاق الجمالية والتفاؤلية، فبذلك تتكون نظرة جديدة ومفارقة في عدد من الأحيان لنظرة النّصوص التّأسيسية المتناولة في الفصل الأول.

أولا- صورة الأسود في المدونة الفقهية:

1- النّوازل:

تتنوّع النصوص من بينها النصّ الفقهيّ فيكون أكثرها تداولا. ومن أشهر كتب الفتاوى المالكيّة هو كتاب: "المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقيّة والأندلس والمغرب"، لأحمد بن يحيى الونشريسي حيث سنورد منه بعضا من نوازل[1] العتق والنظر إلى العبيد السود القادمين من بلاد الحبشة.

جاء في النّازلة الأولى: "وسَئل عن عِلْجٍ كان محبوسا عند رجل فأبق منه ولحق بدار الحرب فأقام بها زمانا، ثم أقبل إلى الموضع الذي كان فيه مأسورا بتجارة: أيجوز للّذي كان في يديه مأسورا أخذه وأخذ ماله معه؟ وكيف إن كان جانحا إلى دار الإسلام وزعم أنّه رغب في الإسلام ألا أخذه؟... فأجاب: إن كان بعد إباقة عهد بينهم وبين

[1] يعرفها الحسن الفيلالي بأنها: "الواقعة والحادثة التي تنزل بالشّخص سواء في مجال العبادات أو المعاملات أو السّلوك أو الأخلاق، حيث يلجأ هذا الشخص إلى من يفتيه بحكم شرعي في نازلته". الحسن الزين الفيلالي، النوازل المغربية ودورها في حفظ فتاوى أعلام المذهب المالكي بالقيروان، ملتقى: القيروان مركز علمي مالكي بين المشرقي والمغربي نهاية ق5هـ، ط1، مركز الدراسات الإسلامية، القيروان، تونس، 1995، ص229.

المشرك فلا سبيل له إليه، وإن لم يكن بينهم عهد أخذه وماله لأنه عبده، وكذلك إن جاء جانحا إلى الإسلام ولا عهد لهم، فهو عبد أيضا ولَيْسَ إِسْلاَمُ عَبْدِي بِالَّذِي يَقْطَعُ رِقَّهُ عِنْدِي"[1].

النّازلة الثانية: "وسئلت عن العبيد القادمة من أرض الحبشة، يعترفون بالتَّوحيد وبفروع الشريعة، هل يجوز بيعهم وابتياعهم أم لا؟ وفيما إذا أسلموا تحت ملك ساداتهم، فهل يحلّ للسيّد بيعهم أم لا؟ وإن كانت السنّة وردت في بيع العبيد، فإن كانت كلمة التّوحيد تمنع من القتل والعذاب في الآخرة فلم لا تمنع إهانة الخدمة وعذابها لأنّ الملك استرقاق ونقص للذات المشرفة بالإيمان؟ وما معنى قول أهل العلم: الرّقّ كفر؟ وهل بعد الإيمان تُستَصحب هذه الصفة أم لا؟ فأجبت بما نصه: الحمد لله تعالى وحده، الجواب والله سبحانه وليّ التّوفيق بفضله، إن كانت ثبتت أصالة كفره من أصناف الكفار غير القرشي، ولم يثبت عليه إسلام في داره ومحل منعته، ونالته أيدي الغانمين بعد الفتح والظهور فإنه يجوز بيعه وابتياعه، واستمرار الرّق عليه بعدها لأنّ الرّق امتهان واستخدام بسبب سابقة الكفر أو مقارنته وتنفير منه، فلهذا كان العبد مفقودا لنفسه، موجودا لسيّده، فإذا عُتِقَ استقلّ وملك أمره، وحصلت له أهلية الملك التام والقضاء والشهادات والولايات وغيرها من سائر مراتب الظهور ورتب الكمالات والمعترف بالتّوحيد وفروع الشريعة من العبيد القادمين من أرض الحبشة أو غيرها من أرض الكفر وديار الحرب لا يمنع اعترافهم بذلك الإقدام على بيعهم وابتياعهم اعتمادا على أصالة كفرهم، والشّك في تقدم إسلامهم عن ملكه أو تأخره عنه لغو لأنه شك في المانع والشك في المانع لا أثر له البتة"[2].

---

[1] الونشريسي، أحمد بن يحيى، المِعْيَارُ المُعْرِب والجَامِعُ المُغْرِبُ عن فتاوى علماء إفريقيّة والأندلس والمغرب، أخرجه جماعة من الفقهاء بإشراف محمد حجّي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1981، ج9، ص236

[2] المصدر نفسه، ج9، ص238–240.

يظهر الفقيه في جوابه عن قضية هذا الأسير الآبق جانب تعامل المسلمين مع غير المسلمين، وهي حال إعلان الأسير إسلامه، ويجيب الونشريسي عن قضية الحرية في الاسلام فلا بدّ أن يكون الإسلام سابقا للأسر لأنّ الإسلام الذي يكون بعد الأسر لا يعد مانعا للرّق فإسلام العبد لا يؤدي إلى تحرره لأنه عبد قبل أن يكون مسلما، فإذا أسلم قبل أسره كان إسلامه مانعا من رقه وعبوديته لأن في ذلك علامة على أنه اختار الإسلام عن وعي وجاهد في سبيل هذا الدّين بأن اعتنقه وهو آمن في بلاده وجهاده يكمن في حمله نفسه على هذا الدين وهو غير معتاد عليه. وهذا الموقف يلتقي فيه كل فقهاء السنة تقريبا، فليس الفقه المالكي وحده الذي يعتبر إسلام الأسير بعد أسره حجة على استرقاقه لأن إسلامه قد يكون طمعا في الحرية فيكون الونشريسي قد استعمل مصطلحات للإقناع بصحّة رأيه، ويقّر بجواز بيع هؤلاء العبيد وابتياعهم لكن بشروط، وهنا يميّز المؤلف بين ما يحق للمسلم الأسير بحكم إسلامه؛ هذا الحكم الذي يميز بمقتضاه بين نتائج اعتناق الإسلام قبل الأسر وبعده في الدنيا والآخرة، ويعتبر الرقّ حكما لا موجب لإسقاطه حتّى بالإسلام[1].

يتبيّن أن الونشريسي لم يحسم بأن إسلام هؤلاء العبيد كان قبل أسرهم أو بعده، إنما هو يتبع رأي الجماعة من الفقهاء في ذلك التمييز ويعتبر استمرار العبودية بعد الإسلام عقابا على الكفر السابق على حد تعبيره بأن الرق امتهان واستخدام بسبب سابقة الكفر، والسؤال الذي طرح على الونشريسي في هذه النازلة يتبين اتصاله بأحد أبواب الفقه التي لم يفصل فيها، فالسؤال تعلّق ببيع العبيد وابتياعهم رغم إقرارهم بالتوحيد وبمختلف فروع الشريعة، وتحولهم من حال الحرية إلى حال العبودية رغم كونهم مسلمين والسؤال تعلق

[1] الرّصاع، شرح حدود ابن عرفة، تحقيق: محمد أبو الأجفان والطاهر المعموري، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1997، ج1، ص780.

أيضا بأحكام البيوع؛ و قضية الغش في البيع وهو التّدليس بمعنى واحد وهو إبداء البائع ما يوهم كمالا في مبيعه كاذبا أو كتم عيبه[1].

وفي نازلة في كتاب المعيار يتطرّق إلى قضية عتق الجواري وزواج الأسياد منهن وحقوقهن كغيرهن من النساء واسقاط العبودية عليهن بذكره لجواب أحد الفقهاء في نازلة طرحت عليه حيث استفادت الجواري المعتقات لما كانت تتعرضن له من مضايقات[2].

في النّوازل المتّصلة بالعبيد تعامل الفقهاء معها بحسب فهمهم للنّصوص القرآنية والسنّة، وفي هذه النّازلة بالذّات لم يكن استنادهم إلاّ على الواقع، وأساسا على حقوق الانسان الحر؛ ذلك أنّ النّصوص التّأسيسيّة للإسلام قد خلت من أيّة دعوة إلى استعباد النّاس والاسترقاق فلم يكن نتيجة حكم مستمد من نص صريح، وإنما كان نتيجة محاولة الفقهاء معايشة الظاهرة لما كان لها من الانتشار الواسع، واجتهادهم في إعطاء الفتاوى المتعلّقة بالعبيد الأسرى، ورأوا ضرورة معاملة الأعداء بالمثل، فالمسلمون عند أسرهم يُحوَّلون إلى عبيد فإنّ من حق المسلمين أن يستعبدوا أسراهم .وقد تناول هذا كتب الفروق الفقهية ومنها عدة البروق[3].

حيث حاول فيه الكاتب بيان سبب عدم سقوط الرق عن الأسير بإسلامه وسقوط الجزية عن الذمي بذلك إذ يقول: "وإنما سقطت الجزية عن الذمي بالإسلام ولم يسقط الرق عن العبد بالإسلام والجامع أن كلاّ من الجزية والرق وجبا عقوبة عن الكفر لأن المعنى في الرق أنها عقوبة مستوفاة فصارت بمثابة الجزية المعجلة المستوفاة يسلم بعد استيفائها وأيضا الجزية وحيث يشترط الصغار، وبالإسلام يسقط الصغار وإذا سقط الشرط سقط الحكم كما يسقط بسقوط علت... فإن قيل لا يصحّ أن تكون الجزية عقوبة

[1] المصدر نفسه، ج2، ص386.

[2] الونشريسي، المصدر السابق، ج3، ص303.

[3] الونشريسي أحمد بن يحيى، عدة البروق في جمع ما في المذهب من الجموع والفروق، تحقيق: حمزة أبو فارس، ط1، دار الغرب الإسلامي بيروت، لبنان، 1990، ص210-211.

لأن الجهاد طاعة فكيف تكون العقوبة بدلا عن الطاعة قلنا كما يكون الإيمان وهو طاعة بدلا عن الكفر وهو معصية وهكذا شان الأهداف والامتثال أن كل واحد منها بدل عن صاحبه"[1].

تصريح الونشريسي في قضية العبيد المجلوبين من أرض الحبشة، وتحريم بيعهم وابتياعهم بسبب إسلامهم من بين الأمور التي لم يصرح بتحريمها بيعهم وابتياعهم بسبب إسلامهم السابق لأسرهم، ففي إجابته وسياق حديثه أجزم بشرعية العبد سواء إن أسلم أو لم يسلم بمجرد أنّه كان عبدا قبل ذلك، من خلال المصطلحات التي فسّرها الكتاب أعلاه.

في نوازل للفترة الزمنية التي تخص المرابطين تناولت قضايا أسواق العبيد، والحيل الّتي كان يستخدمها التجار في التّدليس على المشتري وفي الأثمان المتعلقة بالرّقيق والجواري ومن النوازل: جارية حرة بنت حريين مع قُضاة تلمسان وقرطبة والمرية في الحقبة مدار الدراسة، من خلال نوازل ابن الحاج الشهيد، وظاهرة العبيد ظاهرة عرفت منذ أن أنشأ يوسف بن تاشفين حرسه وجيشه الخاص منهم، كما استخدمهم علي بن يوسف في حروبه بالأندلس لخبرتهم وجلدهم مما يبرز حضور السودان والحشم في الجيش المرابطي حيث تتناولها كتب الحسبة وفتاوى المتعلقة بالحقبة المرابطية للعبيد والخدم السود في قصور العائلات الوجيهة وفقهاء السلاطين وقصور الأمراء والأثرياء[2].

وفي نوازل ابن الحاج في مسائل العبيد المجلوبين من الحبشة والإفتاء بعدم التفريق بين الأمة وابنها إذا بيعت "قال القاضي ابو عبد الله نزلت؛ وذلك أن رجلا اشترى صبيا اسمر مع أمه لم يبلغ حد التفرقة فباع الأمه وحبسه وباع المشتري الأم من آخر، ثم قامت الأم تطلب أن يجمع بينها وبين ابنها، فأفتيت بان تشترى الأم وتكون مع الولد، وأبى صاحبه أيضا فافتيت بأن يبيعهما جميعا من مالك واحد، فدبر سيد الولد الولد، فافتيت

[1] المصدر نفسه، الفرق رقم 255، ص 209، 210.

[2] محمد الأمين بلغيث، دراسات في تاريخ الغرب الإسلامي، دار التّنوير الجزائر، 2009، ص79.

بجواز التدبير ويكون الصبي مع أمه ينفق عليه سيده ويكسوه الى أن يبلغ حد التّفرقة، فيرجع اليه إن شاء الله"[1].

وفي مسألة أخرى من نوازل العتق من التزم بعتق أية جارية يملكها، ما دامت زوجته فلانة حية.

"وسَئل، رضي الله عنه، في رجل، أشهد على نفسه أنه متى ابتاع جارية، من جواري الرقيق، ودخلت في ملكه بأي وجه كان، من صدقة، أو هبة، أو اقتضاء من دين أو غير ذلك من الوجوه، طول حياة زوجه فلانة، فإنها حرة، لوجه الله العظيم، بأول ما يصح ملكه عليها، طائعا بذلك متبرعا به، بعد معرفته بقدر ذلك ومبلغه، في صحة منه وجواز. فهل ترى –رضي الله عنك– أن يلزمه ما أشهد به على نفسه من ذلك، كانت الزوجة في عصمته أو لم تكن، بسبب ما قال طول حياة زوجه، ولم يذكر العصمة، أو لا يلزمه ذلك إلا طول العصمة أم لا؟".

فكان جواب الفقيه عليها أن لا بئس في يمينه في عتقه للجارية مدام قد خشي معاتبة زوجته لاتخاذه الجواري عليها وهي على عصمته، وله نيته فيما ملك من الإماء بعد فراقه إياها. وكذلك إن لم تكن له نية[2].

2– القضاء:

مسائل تتعلق بموضوع الفصل في قضايا العبيد السود وبيعهم وتكون عبارة عن أسئلة يجيب عنها القضاة ويعطون أحكام بناءً على السياسة الإسلامية.

[1]قاضي الجماعة ابن الحاج التجيبي الأندلسي المالكي، نوازل ابن الحاج التجيبي، تحقيق: أحمد شعيب اليوسفي، ط1، الجمعية المغربية للدراسات الأندلسية، 1439هـ/2017م، ج3، ص507.

[2]أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد القرطبي، مسائل أبي الوليد ابن رشد، تحقيق: محمد الحبيب التجكاني، ط2، دار الجيل، بيروت – دار الآفاق الجديدة، المغرب، 1993م، ص358.

سؤال عن عبد بيع بشرط العتق: "الذي يشهد به قاسم بن خلف الاسدي اني كنت في دار يوسف ابن احمد بن هلال ثاني يوم موته في آخر جمادى الاولى من عام أربعة وعشرون وخمسمائة يوسف المذكور رحمه الله ووكلاء حضور مع من حضر من البينة وقد تقاوموا فيما بينهم وضم بعضهم من بعض جميع التركة حتى انتهوا إلى ذكر الغلام المسمى سعادة الاسمر اللون فقال من حضر المجلس عسى أن تفعلوا مع هذا الغلام خيرا إذ لم يقصر الميت معه لحسنه فقال القوم حطوا من ثمنه ونحن نعتقه فقالوا نعم من اشتراه بعشرة مثاقيل بشرط العتق فقال وكيل الزوجة خالتي موكلتي ولكن اصبروا علي حتى أستشير موكلتي فذهب اليها والكل ممن حضر قاعد ثم رجع فقال إني أعلمتها بكل الذي جرى فقالت نعم رضيت ذلك وأمضيته وأنتم تعرفون وكالتي، فقال القوم نعم وبذلك يشهد فلان وفلان عليها وبالله التوفيق. قاله محمد بن عبد الله" فأجاب القاضي على هذا السؤال كالآتي: "إن ثبت على الموكل رضاه بما فعل وكيله من التزامه إياه بما التزمه له بشرط العتق لزمه ذلك وإن لم يثبت ذلك لم يلزمه، ورجع العبد على الشركة بينهم، قاله محمد بن رشد"[1].

وجواب آخر يتضمّن: "إذا تضمّنت الوكالة معنى العتق فالقول قول الوكيل وينفذ فعله، وان أشكل ذلك ولم يوجد في الوكالة معنى ذلك ولم يحصل إلا قول الموكل إذ سئل عن قول الوكيل بإمضاء ذلك فقال نعم، وقال بعد ذلك إن استقام الى اخر قوله، وأنكر الإمضاء وان كان بين ذلك مهلة فالقول قول الوكيل والموكل مدع، وإن كان قوله نفيا فلا يلتفت إلى قول الوكيل والقول قول الموكل حسبما ذكر، والبيع راجع إلى أوليته، وشهادة الوكيل عليه عندي ضعيفة والله أعلم، قاله ابن لبابة"[2].

[1] القاضي عياض وولده، مذاهب الحكام في نوازل الاحكام، تحقيق وتعليق: محمد بن شريفة، ط2، دار الغرب الإسلامي، 1997، ص268.

[2] المصدر نفسه، ص269.

لقد سلك أبو إسحاق الغرناطي في كتابه "الوثائق المختصرة"، مسلك التوثيق المختلط بالفقه ويتضمّن أيضا مسائل اجتماعية تخصّ المعاملات والحياة اليومية في الأندلس وظاهرة الاتجار بالبشر في ظل ما يسمّى بالتّوثيق والتقاليد.

وقد نظمت خطة التوثيق في الأندلس لضمان سير المعاملات على أحسن صور ومن هنا نكتشف ذهنيات المجتمع الأندلسي ونظرته للعبيد حيث أشار لهذه الفئة المهمشة واستحقارها وتحدث عن ظاهرة العنوسة ووجود أزمة الزواج لاكتظاظ الأسواق بتجارة الجواري وكانت لهذه التجارة شرط وقواعد معينة مثل شرط توفر الصحة البدنية للعبد وخلوه من العيوب وحسن السيرة وفي ظل هذه الممارسات لم يقتصر البيع على نوع معين بل شملت البيض والسود في قضية العيوب حيث تشتمل وجوب تأريخ الأيام في قضية الرقيق ومسألة العيوب[1].

حتى في قضية النكاح يفصل الغرناطي في مسألة قبض الصداق حيث يقبض صداق الأمة سيدها[2].

3- الأحكام:

جُلب العبيد السود من إفريقيا جنوب الصحراء إلى بلاد الغرب الإسلامي حيث ورد ذكرهم في كتاب معراج الصعود إلى نيل حكم مجلب السود، بأن شعوب السودان المجاورين للمغرب غلب عليهم الإسلام وقد قام بربر المغرب بابتياع السود الخاضعين للإسلام طوعا، والاختلاف في مسألة امتلاكهم وممارسة الرق عليهم قبل إسلامهم وبعده،

[1] الغرناطي، إبراهيم بن أحمد بن عبد الرحمن أبو إسحاق، الوثائق المختصرة، تحقيق: إبراهيم بن محمد السهلي، ط1، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، 1432هـ/2011م، ص88.

[2] المصدر نفسه، ص106.

وقد وردت أجوبة احمد بابا التنبكتي عن جواز استرقاق أهل كنوة وكشن وبرنو من عدمه، فكان جوابه بأنهم أسلموا قبل أن يستولي عليهم أحد، وهذا ينافي فعل الرق عليهم[1].

وفي رسالة ابن أبي زيد القيرواني في باب البيوع يتحدث عن عدم تفرقة الأمة عن ابنها حتى يجزر، ولا يجوز في البيوع التدليس ولا الغش ولا الخلابة ولا الخطيئة ولا كتمان العيوب ولا خلط دنيء بجيد، ولا أن يكتم من أمر سلعته ما إذا ذكره كرهه المبتاع أو كان ذكره ابخص له في الثمن ومن ابتاع عبدا فوجد به عيبا فله ان يحسبه ولا شيء له أو يرده ويأخذ ثمنه إلا أن يدخله عنده عيب مفسد، فله أن يرجع بقيمتي العيب القديم من الثمن او يرده ويرد ما نقصه العيب عنده. وإن رد عبدا بعيب وقد استغله فله غلته[2]، وعن العهدة الجائزة في الرقيق شرط خلوهم من الجنون والجذام والبرص[3].

وعن مسألة العتق في قوله: "والتّدبير أن يقول الرجل لعبده أنت مدبر أو أنت حر، عن دبر مني ثم لا يجوز له بيعه وله خدمته وله انتزاع ماله، ما لم يمرض وله وطؤها ان كانت أمه، ولا يوطئ المعتقة الى أجل ولا يبيعها، وله أن يستخدمها وله أن ينتزع مالها ما لم يقرب الأجل، واذا مات فالمدبر من ثلثه والمعتق الى أجل من رأسي ماله، والمكاتب عبد ما بقي عليه شيء والكتابة جائزة على ما رضيه العبد والسيد من المال،... منجما قلت النجوم او كثرت فان عجز رجع رقيقا وحل لهما أخذ منه ولا يعجزه الا السلطان ، اذا امتنع من التعجيز ولا يجوز عتق من أحاط الدين بماله ومن أعتق بعض عبده استتم عليه، وإن كان لغيره معه فيه شركه قوم عليه نصيب شريكه بقيمته، يوم يقام عليه وعتق فان لم يوجد مال بقي سهم الشركة رقيقا ومن مثل بعبده مثلت بينه من قطع جارحه ونحوه

---

[1] التنبكتي، أحمد بابا، معراج الصعود.. أجوبة أحمد بابا حول الاسترقاق، تحقيق: فاطمة الحراق وجون هانويك، ط1، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، الرباط، 2000م، ص53، 54.

[2] ابن أبي زيد القيرواني: أبو محمد عبد الله، رسالة ابن أبي زيد القيرواني مالك الصغير، تحقيق الشيخ عبد الوارث محمد علي، دار الفضيلة، مصر، د.ت، ص76.

[3] المصدر نفسه، ص78.

عتق عليه، ومن أعتق حاملا كان جنينها حرا معها، ولا يعتق في الرقاب الواجبة من فيه معنى من عتق بتدبير، أو كتابة او غيرهما، ولا يجوز عتق الصبي ولا المولى عليه ومن أعتق عبدا عن رجل فالولاء للرجل، ولا يكون الولاء لمن أسلم على يديه وهو للمسلمين"[1].

وفي صورة أخرى لفقه الأحكام فيما يخص إخراج الزكاة وفيمن يجب استخراجها ومن لا يجب تأتي سيرة العبيد في كتاب مختصر الطليطلي فيقول: "قال علي –رحمه الله–: وليس على الرجل في عبيده فطرة ولا على العبيد ان يخرجوا عن أنفسهم ولا عن عبيدهم فطرة، انما يخرج الرجل عن عبيده فطره ولا يخرج عن عبيد عبيده ولا على الرجل ان يخرج عن رقيق امرأته فطره إلا من كان منهم يخدمه ولا بد له منه، ولتخرج المرأة عن عبيدها إذا لم يكونوا لخدمه زوجها"[2].

أمّا فيما جاء في باب فيما لا تجب فيه زكاة من أموال العبيد قال: "قال علي – رحمه الله–: وليس على العبيد زكاه في شيء من اموالهم لا في زروعهم ولا في كرومهم ولا في مواشيهم ولا فيما في ايديهم من الذّهب والورق، ولا فيما يديرون من التّجارات ما لم يعتقوا فإذا اعتقوا استقبلوا حولا ثم يزكون ما يملكون من اموالهم من يوم اعتقوا ان كان بأيديهم ما تجب فيه الزكاة"[3].

وفي كتاب الجامع لابن أبي زيد القيرواني في التفاتة له في قضية الاكثار من الثمار والشّراء من عند العبد والأمة على أن يجازيهم بهدية أو دينارين فكان حكمه أن لا بأس ان كان لم يغير عليه سيده أو لم يستخف الأمر[4].

---

[1] المصدر نفسه، ص83–84.

[2] الطليطلي، أبو الحسن علي بن عيسى بن عبيد، مختصر الطليطلي، تحقيق محمد شايب شريف، ط1، دار ابن حزم، بيروت، د.ت، ص82.

[3] المصدر نفسه، ص83.

[4] ابن أبي زيد القيرواني، أبو محمد عبد الله، الجامع في السنن والآداب والمغازي والتاريخ، تحقيق: محمد أبو الأجفان، ط1، المكتبة العتيقة، تونس، 1403هـ/1983م، ص187.

4- الحسبة:

كان رسول الله صلى الله عليه وسلّم أول من مارس الحسبة[1] في التاريخ الإسلامي حيث كان يمشي في الأسواق وينهى عن الغش والتطفيف في الكيل، وسار على خطاه أصحابه الخلفاء الراشدين، ولما توسعت الدولة الإسلامية صار واجبا على أولياء أمور المسلمين تعيين محتسبين مؤهلين، وتتعلق الحسبة بالأسواق والطرقات وتجمعات الناس وكل ما يصب في السير الحسن في الأسواق واحترام الحقوق والواجبات، وكل ما يتعلق بالغش والتّدليس في الموازين وغيره، حيث تتفرع الحسبة من بوتقة القضاء.

يرى ابن عبدون أنه على المحتسب أن يكون رجلا عفيفا خيّرا فنيا نبيلا عارفا بالأمور محنكا فطنا لا يميل ولا يرتشي[2].

يتحدث السقطي في كتابه أداب الحسبة عن المفسدين المدلسين في بيع العبيد بالأسواق الذين يعاملون الناس بالمكر والخداع، منها أنهم كانوا ينصبون امرأة يسمونها الأمينة، توافقهم في التدليس والنكران وتشهد باستبراء الخدم من الجواري المعروضات للبيع، بغرض التعجيل بالاجتماع بهن من طرف المشترين، ويكون ذلك بحسب ما يعطون لها، وكذلك إخفاء العيوب حيث تحمل الجواري مزينات معطرات الى ديار من يطلبهن باسم الشراء ويوهم بإرادة التقليب والاختبار لا سيما ذوات الصناعات منهن، وتقيم يومها بهن لاختبار صنعتها وتأخذ أجرة بالإضافة لأجرة الوساطة بين البائع والمشتري[3].

---

[1] عرف ابن خلدون الحسبة أنها وظيفة دينية من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الذي يد فرضا على القائم بأمور المسلمين، يعين لذلك من يراه أهلا له. ابن خلدون، عبد الرحمن، مقدمة ابن خلدون، مراجعة سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، 2001، ج1، ص280.

[2] ابن عبدون، رسالة في آداب الحسبة والمحتسب، تحقيق أ. لفي بروفينستال، مطبوعات المعهد العلمي الفرنسي للأثار الشرقية، القاهرة، 1955، ص20.

[3] السقطي، أبو عبد الله محمد بن أبي محمد المالقي الأندلسي، آداب الحسبة، تحقيق ليفي بروفنسال، مطبعة ارنست لورو، باريس، 1931، ص48.

وعرف السودانيون بكثرتهم في الأسواق والاهمال، وكثرة الرقص والضرب على الدف ويعتبرون أحسن خلق الله من ناحية بياض الأسنان، ويعابون بنتن الابط وخشونة الملمس. أما العنصر الأنثوي الحبشي فعرفن بالضعف والترهل والاستعداد لأمراض الصدر، على عكس السودانيات فهن لا يحسن الرقص ولا الغناء ولكنهن قويات الخلق، أهل للاعتماد والثقة[1].

ويسرد السّقطي بعدها قصة تتعلق بأحد مفسدي هذا الصنف من أعمال التّدليس الّذي عرض على أحد أصحاب الثروة خادمة سوداء مقابل خمسة دراهم، وكان هذا بعد أن طلبها منه المشتري قائلا له أين الخادمة الّتي ساق لك فلان للبيع وأردف واصفا إيّاها بالكاملة القد الحالكة البديعة الصورة الحلوة الشكل، فأعطاه صاحبه ما طلب ليخرج ويغيب قليلا ويأتي بخادمة سوداء على النحو الذي وصف، ملتحفة بكساء أبيض محشي بالأحمر.[2]

ويصف السقطي أيضا موقفا من المواقف ان من غشهم وحيلهم انهم يبيعون نوعا منهن على نوع، وصنفا على صنف، وقد تكلم الناس في أصنافهم وصورهم وأخلاقهم وما يصلح له كل نوع منهن، وخاضوا في ذلك كل خوض، وقالوا الخادمة الزنجية للرضاع، والبربرية للذة، والمكية للغناء، والمدنية للشكل، والعراقية للطرب. أما الذكور فالهند والنوبة لحفظ النفوس والأموال، والزنج والأرمن للكدّ والخدمة ومعها العطاء، والترك والصقالبة للحرب والشجاعة، والبربريات اطبع الخلق على الطاعة وأنشطهم للعمل وأصلحهم للتوليد واللذة وأحسنهم للولد، وبعدهن اليمنيات ويشبههن العرب، والهنديات لا يصبرن على الذل

[1] المصدر نفسه، ص48.

[2] المصدر نفسه، ص49.

ويرتكبن العظائم ويسهل عليهن الموت، والزنجيات أشد خلق الله وأجلدهم على الكدّ وفيهنّ صنان يمنعهن في الغالب من اتخاذهن[1].

ومن حيل المذكورين فمنها أن يتخذوا غمرة صفتها باقلا نقع في ماء البطيخ ستة أيام ثم في لبن حليب سبعة، يحرك اللبن في كل يوم ويغمرون به وجه الدرية اللون فتعود بيضاء، ويدخلون السمراء اللون في أبزن قد وضع فيه ماء الكرويا حتى تلون وتقيم فيه لأربع ساعات من نهار، فتخرج عنه وقد صارت ذهبية، ويدهنون أوجه السودان وأطرافهم بدهن البنفسج والطيب فتحسن بذلك ويسودون الشعر بدهن الآس ودهن قشر الجوز الرطب ودهن الشقائق ويغسل من ذلك بطبيخ الأملج[2].

الملاحظ هنا أنّ سوق العبيد والخدام وقضية ابتياعهم لم تكن فقط من أجل الخدمة بل تعدى ذلك إلى تقسيم الخادمات إلى أصناف وأنواع حسب العرق واللون، على أساس الجودة فالغاية إشباع الرغبات أيضا فقد أخذت الجواري ذوات البشرة السوداء النظرة الدونية من ناحية الجمال والقبول، واستعملت فيهن الحيل وطرق التجميل والتحسين على حد التعبير أعلاه في نقعهن في خلطات لساعات طويلة ومحاولة التبييض واستخدامهن في الكدّ والأعمال الشاقة على أساس أنهن الفئة التي لا تتعب وفي الرضاع.

ثانيا- صورة الأسود في المدونة الصوفية:

يعتبر كتاب التشوف لابن زيات من خيرة المصادر التي توفي حق الأولياء المغاربة، حيث ركز الكاتب على فئة الأولياء السّود لإبراز القيمة الإنسانية التي تظهر من خلال الكرامات والمناقب لهم وأن النفس الطاهرة والصالحة لا تقترن بالشكل وإنما بالمؤمن والتقي والأعمال الصالحة، ويذكر ابن الزّيات العديد من الأولياء السود سنحاول

[1] المصدر نفسه، ص 49-50.

[2] المصدر نفسه، ص 50-51.

ذكر بعض منهم، ومن كراماتهم، وفي هذا الجانب حاولت استسقاء نظرة الاستحسان من خلال كتب التصوف وذهنيات رجال التصوف وعلى ضوئهم تنعكس صورة الناس والمجتمع لذوي البشرة السوداء والكف عن الحكم عليهم من لونهم، وأن اختلاف معادن البشر يكون على أساس أعمالهم وهبات الله لهم لا في ألوانهم وأشكالهم.

1- الأولياء:

وقبل ذكر الأولياء السود ارتأيت أن أعرف من الناحية الاصطلاحية مصطلحي الأولياء والكرامات والمناقب من خلال مجموعة من المؤلفين:

الولي في الاصطلاح: عرف النبهاني الولي على أنّه "الولّي من تولى الله تعالى بالطاعة وتولاّه الله تعالى بالكرامة والرعاية، وقيل الولّي من توالت أفعاله على موافقة الشرع الشريف وكل من كان للشّرع عليه اعتراض فليس بولّي وإن طار في الهواء ومشى على الماء"[1].

فقد عرّفه شيخ الإسلام ابن تيمية فقال: "وقد قيل إن الولي سمي ولياً من موالاته للطاعات أي متابعته لها ويقابل الولي العدو على أساس من القرب والبعد"، وقال الإمام الشوكاني في تفسيره: "والمراد بأولياء الله خلقه المؤمنين كأنهم قربوا من الله سبحانه بطاعته واجتناب معصيته وقد فسر سبحانه هؤلاء الأولياء بقوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: 63].

أي يؤمنون بما يجب الإيمان به ويتقون ما يجب عليهم اتقاؤه من معاصي الله سبحانه، وقال الدكتور إبراهيم هلال: وهذا المعنى الذي يدور بين الحب والقرب هو الذي

[1] إسماعيل النبهاني، جامع كرامات الأولياء، تحقيق: إبراهيم عطوة عوض، ط1، مركز اهلسنت بركات رضا، فوربندر غجرات، الهند، 2001، ج1، ص07.

أراده القرآن الكريم من كلمة ولي ومشتقاتها في كل موضع أتى بها فيه سواء في جانب أولياء الله أو في جانب أولياء أعداء الله وأعداء الشيطان"[1].

2- الكرامات:

ارتبطت الكرامة بالأمر الخارق للعادة يظهر على يد الولّي وهو من أولياء الله تعالى وهنا لم يحدد شرط النبوة، بل كان التحديد على يد ولي فقط. في حين عرفها ابن الزيات بقوله: "اعلم أن كرامات الأولياء جائزة عقلاً ومعلومة قطعا"[2].

وفي تعريف ابن تيمية: "وإن كان اسم المعجزة يعم كل خارق للعادة في اللغة وعرف الأئمة المقدمين كالإمام أحمد بن حنبل وغيره، ويسمونها: الآيات لكن كثير من المتأخرين يفرق في اللفظ بينهما، فيجعل المعجزة للنبي والكرامة للولّي وجامعهما الأمر الخارق للعادة"[3].

يذكر التميمي في كتابه المستفاد أنواع الكرامات منها ما يتعلّق بالطّبيعة، كخرق حدود الزمن، والانتقال الى أماكن بعيدة في وقت قصير جدا، والظهور في عدة أماكن، ومنها ما يتعلق بالعباد، كإبراء العاهات واشفاء المرضى، وترويض الحيوانات المتوحشة، وتسهيل الولادة، والتنبؤ بجنس المولود[4].

---

[1] مجموعة من الباحثين: الموسوعة العقدية، موقع الدرر السنية على الرابط: www.dorar.net، ج8، ص273.

[2] ابن الزيات، أبو يعقوب بن يوسف بن يحي بن عيسى بن عبد الرحمن التادلي، التشوف إلى رجال التصوف، تحقيق: أحمد التوفيق، ط 2، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1997، ص08.

[3] ابن تيمية، المعجزات والكرامات وأنواع خوارق العادات ومنافعها ومضارها، تحقيق: أبو عبد الله محمود بن إمام، ط1، مكتبة الصحابة، طنطا، 1986م، ص09.

[4] التميمي، أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم التميمي الفاسي، المستفاد في مناقب العباد بمدينة فاس وما يليها من العباد، تحقيق: محمد شريف، ط1، مطبعة توب برس، الرباط، 2002، ج1، ص140.

3- في وصف الأولياء السود وكراماتهم:

قبل التطرق لهم نعرج بذكر المكانة العظيمة التي كرم بها بلال الحبشي رضي الله عنه، حيث رفعه الله من منزلة العبد الى منزلة الشرف بأنه كان صحابيا للرسول صلى الله عليه وسلم وأول مؤذن في الإسلام، ورفع منزلته بين المسلمين بأن بقي رمزا مشرفا للطهارة والعفة والتجرد وحسن العاقبة، يذكره التاريخ الى أن يرثها الله ومن عليها، حيث كانت أغلبيةُ الفئة المسلمةِ الأولى من الفقراء والعبيد، التي آمنت برسالة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، كان أبرز هؤلاء النفر الصحابي الجليل بلال بن رباح، السيد المتعبد المتجرد، دعوة الإسلام التي كانت تقدم فضائل وأخلاق الإنسان على أي شيء مادي آخر.

يذكر كتاب التشوف لابن الزيات الولي الفقيه السايوي من هسكورة من قبائل المصامدة كان أسود اللون، حيث ذكر له كرامة من الكرامات أثناء صلاته في جامع وطاس صلاة الظهر وسهى فيها وما كان لخمسين سنة أن يسهو ولا مرة، وعندما سأله الناس عن سبب ذلك أخبرهم بأن خاطره اشتغل بقتل أخيه ولذلك سجد، فجاءهم خبر قتل أخيه بعد أيام في الساعة التي مر بخاطر لقمان قتله[1].

ويذكر أيضا الولي أبو محمد أبو الأمان ابن يلارزج الهسكوري الأسود الحافظ لكتاب مالك، دارس للفقه كان عبدا صالحا[2].

تحدث ابن الزيات عن الولي ريحان الأسود من مدينة سبتة، حيث كان ظاهر البركات يخبر بالعجائب فتتحقق، وإذا ذهب الى أحد وقعت له نازلة يفرج الله عنه وكان يعيد الكلام مرارا وتكرارا، ويحصا الأمر الذي يخبر به[3].

---

[1] ابن الزيات، المصدر السابق، ص114.

[2] نفسه، ص152.

[3] نفسه، ص159.

ويذكر الولي أبو لقمان يرزجان ابن يعقوب الأسود في مرة لطمه أحد من الرؤساء على خده وأمره بالعديد من الأعمال وهدده بالقتل إن لم يقم بإنهائها إن قدم في المرة القادمة فرد عليه ان عدت ولم أفعل فافعل ما أردت، فلما ركب الرئيس فرسه وفي الطريق سقط من حصانه وتقطعت أعضاؤه ومات، وفي كرامة له أيضا أنه جلس مع تلميذه على شاطئ واد تانسيفت، وبدأ بالذكر فاذا بتلميذه يرى أناسا يمشون فوق الماء وعند اخباره رد عليه ان كان هو يرى الذين يمشون في الهواء فرفع رأسه فاذا به يراهم يمشون في الهواء، وفي كرامة له أنه مسح على رأس غلام مصاب بالصرع وشفي منه تماما[1].

ترجم التميمي في كتابه المستفاد أدوار الأولياء في المجتمع وركز في سيرهم وتراجمهم، وخص بالذكر الأولياء السود لإبراز القيمة الإنسانية في فضائل الأحلاق لا فضائل الألوان كما ركز على استقامتهم الدينية في حفظ القرآن والحديث وتدريس الفقه حيث ذكر أبو يعزى يلنور بأنه كان أسودا حين قال: "وكان رحمه الله أبو يعزى أسود اللون"، وفي ذكر مناقبه ذكر التميمي بركات دعاء أبي يعزى في الدّعاء لنزول الغيث، وكان حاجبا نفسه للشّهوات وملذات الدنيا[2].

ولم يكتف التميمي بالقطب أبي يعزى فقط بل ذكر العديد من الأولياء من بينهم الولي أبو علي المنصوري ابن فوق كان أسود اللون، وكذلك الولي مسلم الحبشي، حيث يذكره بأنه كان مشهورا بالعبادة والبكاء ومن خلال أصله الحبشي يتضح أنه أسود البشرة[3].

[1] نفسه، ص252.

[2] التميمي، المصدر السابق، ص33.

[3] نفسه، ص161.

ثالثا- صورة الأسود في المدونة الأدبية:

1- الأشعار:

نأتي لتناول صورة الأسود في مدونة الشعر بقصيدة استحسان للسواد، بقلم الشاعر ابن الأبار الذي أبان فيها تفضيله للسواد، حين قال[1]:

لا تَعِيبُوا السَّوادَ فَهُوَ مُناكُمْ *** فِي فُرُوعٍ وأَعْيُنٍ وَحَواجِـــبْ

ولَقَدْ تَـجْعَلُونَ مِنْهُ رُقُوشـاً *** ونقُوشاً عَلَى خُدُودِ الكَوَاعِبْ

وَأَرَى الليلَ عِنْدَكُمْ مُسْتَحَبّا *** وَأَرَى الصبْحَ عابَهُ كُلُّ عائِبْ

وَسَلِ المِسْكَ وَالغَوَالِيَ عَنْهُ *** وَسَلِ الحِبْرَ في صَحِيفَةِ كاتِبْ

وَعِـذَاراً إِذَا أَلَمَّ بِـخَـــــــدٍّ *** دَبَّ فيهِ كَما تَدِبُّ العَقَــارِبْ

وَكَفَـى أَنَّهُ لِحَبَّة قَلْبِـــــي *** وَلِعَيْنِي وللشبابِ مُنـــاسِبْ

وفي صورة شعرية تستهجن السّواد يقول ابن زيدون في وصفه للغربة التي كان يعيشها:

حالت لفقدكم أيامنا فغدت سودا *** وكانت بكم بيضا لياليا[2]

فالغربة هنا جعلت من أيامه سودا مليئة بالحزن والهم، بعدما كانت بيضاء مليئة بالسعادة، ما يدل على أن الشاعر قرن اللون الأسود بشعور الحزن والمأساة.

ويعبر ابن الأبار عن المصائب قائلا:

---

[1] أبو ابن الأبار، أبو عبد الله محمد القضاعي البلنسي، ديوان ابن الأبار، قراءة وتعليق: عبد السلام الهراس، ط1، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، 1420هـ/1999م، ص452.

[2] يحيى أحمد رمضان غبن، دلالات الألوان في شعر الحروب والفتن في الأندلس، أطروحة دكتوراه، الجامعة الإسلامية غزة، 2017، ص25.

وما اسودَّ وجه الخَطْب إلاّ سَما به *** ليجلوه طلق الأسرّة مبيضا[1]

يصف الشاعر هنا المصيبة بالسواد الذي يزول بجهاد المؤمنين حتى يصبح مبيضا من النصرة وزوال المصيبة.

ويذكر ابن دراج القسطلي وجه المنايا الأسود في وصف حالة الأطفال الصعبة:

وجوه المنايا السود والحدق الحمر *** وكم بدّلوا من وجه راع وحافظ [2]

عبر الشاعر عن حالة الأطفال التي صارت مرتبطة بالموت من خلال وجوههم وأحداقهم الحمراء، رابطا اللون الأسود بالموت لا محال.

وفي بيت آخر:

يا أيها القمران أين سناكما *** عن مطبق في ليل هم أسود[3]

حيث ربط ومزج مصطلح الليل المهموم بالسواد ووحشته وشدة كآبته وألمه.

ويقول أيضا في الجانب المعنوي مستحضرا اللون الأسود في إشارة إلى الكفر:

حتى أعاد الدين أبيض مشرقا *** بسيوفه والكفر أدهم أسودا[4]

عبر في هذا البيت على فوز الدين بالبياض والإشراق والنور في مقابله وصف الكفر بالسواد.

تبيّنت نزعة عنصرية تجاه اللون الأسود، حيث استخدمه ابن حزم لوصف جهالة فئة من الدولة العباسية التي اتخذت من الراية السوداء شعارا لها، وكذا المرابطين، ومن

---

[1] ابن الأبار، المصدر السابق، ص362.

[2] ابن دراج القسطلي: الديوان، حققه وعلق عليه: محمود علي مكي، ط1، منشورات المكتب الإسلامي، دمشق، 1961، ص 276.

[3] المصدر نفسه، ص72.

[4] المصدر نفسه، ص453.

هنا كنتاج للخلافات السياسية تولدت مثل هذه القصائد على حد قول الوزير الشاعر ابن حزم الأندلسي:

وأبعد خلق الله من كل حكمـــــة *** مفضل جرم فاحم اللون مسود

به وصفت ألوان أهل جهـــــــنم *** ولبست باك مثكل الأهل محتد

ومذ لاحت الرايات سودًا تيقنت *** نفوس الورى أن لا سبيل إلى الرشد[1]

وصف الشاعر الزنوج السود بالجهل وعدم الحكمة والشؤم، ووصف نار جهنم ولباس الحداد، حيث يقترن هذا الموقف مع موقفه السياسي من للعباسيين ببعدهم عن الهداية.

وفي أبيات لابن سينا في وصف أهل السودان عن ألوانهم التي تتبع الهواء التي استدل بها ابن خلدون:

بالزّنج حرّ غيّر الأجسادا *** حتّى كسا جلودها سوادا

والصّقلب اكتسبت البياضا *** حتّى غدت جلودها بضاضا[2]

وُضع اللّون الأسود في شعر الغرب الإسلامي في عدة مواطن، تراوحت بين الاستحسان والاستهجان، وغالبيتها كانت تضع اللون الأسود في مواضع الحزن والهم والألم والأنين، وأحيانا أخرى لوصف الجهل وأهل النار وأهوال الموت والقرب منه والحداد، وحتى في وصف البشر لمجرد أن بشرتهم سوداء، حيث وصفوا بأبشع الأوصاف، وشبهوا بالغربان في مواضع، ما يدل على تولد النظرة العنصرية في ذهنية

[1]ابن حزم، أبو محمد علي أحمد، طوق الحمامة في الألفة والألاف، تحقيق صلاح الدين القاسمي، دار المعارف، القاهرة، 1980، ص132.

[2]عبد الرحمن ابن خلدون، ديوان العبر والمبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن جاورهم من ذوي السلطان الأكبر، ج1، دار الفكر، بيروت، لبنان، 2001، ص106.

الشعوب آنذاك، وخلق لهم جرأة كبيرة لا يستهان بها خلقت عالما متوحشا ضد النفس البشرية سمراء اللون.

2- الأزجال والأمثال:

الزجل اسم أطلقه الأندلسيون على شعرهم العامي الذي شاع واشتهر في القرن الثاني عشر الميلادي، واشتهر به كثرا ابن قزمان، والزجل هو كل أنواع الشعر العامي وانتشر بعد ذلك في لهجات الأقطار العربية الأخرى في المشرق حيث تحدث عليه ابن خلدون في مقدمته .واستحداث أهل الأندلس لمصطلح الزجل الذي اتخذه العامة في مختلف الأمصار ونظموا طريقته بلغتهم الحضرية[1].

في العصر الوسيط اعتبر الزجل والموشحات أحد مظاهر الأدب الأندلسي، تعبيرا عن منطوق المجتمع ووصف حاله ويومياته، وأدق تفاصيل حياته، فكانت بذلك لسان حال المجتمع الأندلسي، ومثل القرن الثالث الهجري وما بعده فترة رطبة أثري فيها التأليف الزجلي والموشحي بشتى أنواعه، فألفت مجموعة من المصادر في الأزجال والأمثال[2].

وفي ديوان ابن قزمان القرطبي (ت 555هـ/1160م) حيث يعتب هذا مصنفا من بين أشهر كتب التراث الشعري الملحون الذي وصل لنا بلغة أهل الأندلس ورسم حروفهم، فابن قزمان باعتراف العديد من الباحثين يعتبر أكرب زجال دون منازع، وكان السبب في جمع أزجاله كما أقر به هو على مر العصور، وفي كل الأقطار العربية، حيث حوى هذا المؤلف تلبية لطلب الوزير: "أبو إسحاق إبراهيم بن أمحد الوشكي "مائة وثالث وتسعين بيتا شعريا ملحون (زجلي)، تداخلت فيه ضروب الشعر بين مدح وذم، وغزل، وتقديم وتعريض، فكان بذلك تركيبا فسيفسائيا صور لنا المجتمع الأندلسي في مشهد فلكلوري، بما أن أزجال ابن قزمان هي عبارة عن أبيات شعرية من جنس الزجل، فإن أكثر ما عثرنا

[1] عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط1، 1993، ص518.

[2] محمد بن شريفة، قسم الدراسة من تحقيقه لكتاب أمثال العوام في الأندلس للزجالي، ط1، منشورات وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية والتعليم الأصلي، المغرب، 1975م، ج1، ص 98 وما بعدها.

فيها على أمثال وحكم لا زالت تحافظ على معناها، وحتى رسمها –في بعض الأحيان– داخل الحزمة اللهجية للمجتمع الجزائري[1].

جاء في أزجال ابن قزمان وشاح وزجال الحقبة المرابطية ويدل البحث في كتب الفقه والنوازل استفحال ظاهرة تفوق النساء على عدد الرجال في المجتمع المرابطي، وذلك ربما عائد للحروب الطاحنة التي خاضها الجيل الأول والثاني بالمغرب والأندلس خاصة، فقد خلفت هذه الحروب العديد من الأرامل، كما تشير إلى ذلك أمثال العامة التي جاءت في أزجال ابن قُزمان وشاح وزجال الحقبة المرابطية، كما أن تجارة الرقيق والجواري خاصة أسفرت عن اكتظاظ الأسواق بهن فعز الأزواج وكثرت العوانس. ومن ذلك عزوف الرجال عن الزواج بالحرائر خاصة للشروط العالية المسجلة في عقود الزواج والكالي وملحقاته الذي كان نذير فقر وسوء عاقبة، حتى انتشرت ظاهرة العزوبية في المجتمع مما أدى بالمجتمع الأندلسي على عهد المرابطين أن ينظر لهؤلاء نظرة ارتياب وشك في سلوكهم الاجتماعي كما أشارت كتب النوازل إلى ظاهرة أخرى هي تعدد الزوجات وأحكام التعدد كما أشار إلى ذلك ابن زكون فقيه الحقبة المرابطين في فصل خاص في كتابه "اعتماد الحكام في مسائل الأحكام"[2].

ومن بين أمثال ابن العوام عن الأسود: أَسْوَد على اسْوَدْ، هم إلاَ يَرْفد.

وهذا المثل يقال في نفقات الإماء والعبيد[3].

وفي مثل آخر لابن العوام: السُّود للسّادة، والبيض للرمادة. ويقصد بهذا المثل عند قلب الأوضاع بين الإماء السّود والبيض الأحرار لإبراز التنافر بينهما[4].

---

[1] بلال عمرون، "ألفاظ أندلسية في المنطوق اللهجي الجزائري.. قراءة في كتب الأمثال والأزجال الأندلسية"، مجلة قبس للدراسات الإنسانية والاجتماعية، جوان 2018، المجلد 02، العدد 01، ص 312–333.

[2] محمد الأمين بلغيث، دراسات في تاريخ الغرب الإسلامي، ص65.

[3] أبو يحيى عبيد الله بن أحمد الزجالي القرطبي، أمثال العوام في الأندلس، تحقيق محمد بن شريفة، ط1، وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية والتعليم الأصلي، المغرب، 1975م، ج2، ص64.

[4] المصدر نفسه، ج2، ص68.

ومثل آخر يقول: أسود هو، أجْوَدْ هو.

يقصد به وصف اللّون الأسود للكلب، كونه يعبر عن القوة التي تفوق قوة اللّون الأبيض، والجرأة وهول المنظر.[1]

ويقول مثل عن السُّودان: أجب لحبّها السُودان حتى أُحب لحبّها سود الكلاب[2].

3- الرحلات:

يصف ابن خلدون في مقدمته أثر الهواء في أخلاق أهل السّودان أهل الإقليم الأوّل ومسكنهم من الكهوف ومأكلهم من العشب أخلاقهم المتوحشة حيث يأكل بعضهم بعضا والسّبب في ذلك أنّهم بعيدون عن المناطق المعتدلة والهواء المعتدل ويقرن اخلاقهم بأخلاق الحيوانات البعيدة عن الإنسانية، كما تحدث عن انعدام الديانة والمعتقد إلّا فئة قليلة القريبة من المناطق المعتدلة، مثل الحبشة المجاورين لليمن معتنقي الديانة النصرانية قبل الإسلام وما بعده، ووصفهم بالطيش والطرب والولع بالرقص ومن شدته أصبحوا يوصفون بالحمقى في كل مكان وكان موقف ابن خلدون من الذين يضنون أن اختلاف البشر وأنماط ألوانهم وأخلاقهم يقترن بالأنساب والآباء حيث ينفي هذا الاعتقاد وأن تسمية الزنوج سودانا ليس فقط لأنهم ينتمون الى حام الأسود، ويقرنهم بالحرارة التي تؤثر على الروح والجسد[3].

وفي مقولة لابن خلدون عن اعتقاد البعض بسبب اللون الأسود لبشرته السودان وهي على حد تعبيره خرافة حيث يقول: "وقد توهّم بعض النّسّابين ممّن لا علم لديه بطبائع الكائنات أنّ السّودان هم ولد حام بن نوح اختصّوا بلون السّواد لدعوة كانت عليه من أبيه ظهر أثرها في لونه وفيما جعل الله من الرّقّ في عقبه وينقلون في ذلك حكاية من

[1] المصدر نفسه، ص120.

[2] المصدر نفسه، ص323.

[3] عبد الرحمن ابن خلدون، المصدر السابق، ص108.

خرافات القصاص ودعاء نوح على ابنه حام قد وقع في التّوراة وليس فيه ذكر السّواد وإنّما دعا عليه بأن يكون ولده عبيدا لولد إخوته لا غير وفي القول بنسبة السّواد إلى حام غفلة عن طبيعة الحرّ والبرد وأثرهما في الهواء وفيما يتكوّن فيه من الحيوانات وذلك أنّ هذا اللّون شمل أهل الإقليم الأوّل والثّاني من مزاج هوائهم للحرارة المتضاعفة بالجنوب فإنّ الشّمس تسامت رؤوسهم مرّتين في كلّ سنة، ويلح القيظ الشّديد عليهم وتسودّ جلودهم لإفراط الحرّ "[1].

ولعل من أهم الحرف التي مارسها العبيد والإماء خصوصا، تدبير الشؤون المنزلية ومنها الطبخ وقد ذكرنا سابقا رواية عن جواري أودغست: "بها سودانيات طباخات محسنات تحسن عمل الأطعمة الطيبة من والقطايف أصناف الحلويات" ولم تقتصر حرفة الطبخ على النساء، بل استمرت إلى بعض الموالي من اليهود الذين أعلنوا إسلامهم: "احترفوا طبخ الخبز والسفنج والشواء" ومن الأعمال القاسية التي سخر فيها العبيد، التعدين والعمل بالمناجم وهي من أشد الأعمال وأشقها حتى سماها بعض الباحثين جحيما، حيث يمكن إسقاط رواية لابن بطوطة على فترة الدراسة تفيد باشتغال العبيد السودان في مجال استخراج الملح وسبك المعادن حيث رأى عبيدا من مسوفة الصنهاجية بمدينة تغازي في مناجم الملح وتولى العبيد سبك النحاس في مدينة تكدابا[2].

[1] عبد الرحمن ابن خلدون، المصدر نفسه، ص107.

[2] ابن بطوطة، محمد بن عبد الله، رحلة ابن بطوطة: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، ص678.

وقد اضطلع الرقيق بمهمة أخطر وهي تربية الأطفال وكانت الجواري يقمن بإرضاع الأطفال ومنهن أم علي جارية عبيد الله المهدي التي أرضعت ابنه أبا القاسم بمدينة سلمية وقد اختصت الزنجيات بهذه المهمة[1].

وفي أحوال أهل السودان يذكر ابن بطوطة أنهم من أعظم الناس تذللا لملكهم وأكثرهم تواضعا له، حيث يحلفون باسمه فيقولون: "منسى سليمان" حيث منسى تعني السلطان وسليمان هو اسم السلطان، حيث أنه إذا دعا بأحدهم يقوم هذا الأخير بنزع ثيابه وعمامته ويجعل شاشية وسخة، ويدخل بذلّة ومسكنة رافعا ثيابه وسراويله إلى نصف ساقه، ويقف راكعا يسمع كلام ملكه، ضاربا مرفقيه ضربا شديدا في الأرض، ومما ذكر أيضا أنه عندما يكلم السلطان أحدهم، يرمي هذا الشخص على راسه التراب في مظهر المغتسل وكأنه يغتسل بالماء، لأمه، حيث أن السلطان إذا تكلّم في مجلسه تجد جميع الحاضرين واضعين عمائمهم على رؤوسهم منصتين للكلام، وكان عندما يقوم أحدهم ويتكلم عن أفعال السلكان بأن فعلت كذا وكذا وكان تعقيب السلطان بالشكر للمتحدث يقوم المتحدث بنزع ثيابه ورمي التراب على جسمه، ويعتبر هذا التصرف عندهم من الأدب، ويذكر أنه كان إذا توجّه رسول عن منسى سليمان إلى ملك أو إلى جهة أخرى كان عندما يدخل عليه حمل بعض ناسه معه قفة من التراب فيترب مهما قال له هذا الملك كما يفعل ببلاده[2].

يتحدث الادريسي في كتابه نزهة المشتاق عن الإقليم الأول من السودان ومدنه المشهورة حيث تحدث عن الصنائع ونساء هذه المدن واشتهارهن بالسحر والمعرفة الكبيرة

[1] محمد عيوني، "دور الرقيق في الحياة السياسية والثقافية ببلاد المغرب والأندلس خلال القرنيين 4 و5 والهجريين"، رسالة ماجستير في العلوم الإسلامية، جامعة الجزائر1، كلية العلوم الإسلامية، قسم اللغة والحضارة العربية الإسلامية، 2012-2013، ص83.

[2] محمد بن عبد الله ابن بطوطة وابن جزي الكلبي، رحلة ابن بطوطة: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، مؤسسة هنداوي، المملكة المتحدة، 2020، ج2، ص496.

به، وعن أهل بغامة السودان البرابر الرحالة الذين أحرقت الشمس جلودهم وغيرت ألوانهم ولسانهم لسان البربر وعبر بذلك عن السواد الشديد لبشرتهم، وعلمهم بالأرض وحفرها وشربهم منها، ويصف ملكا لمدينة كوكو بأنه قائم بذاته له حشم كثير وقواد وأجناد وزي كامل وحلية حسنة يركبون الخيل والجمال ولهم هيبة وبأس أمام المدن المحيطة بهم، وفي لبس الجلود الذي يستتر به عامة مدينة أخرى الجلود وتجارهم بحليهم المصنوعة من الذهب[1].

خلاصة الفصل:

تباينت نظرة السواد في النصوص التراثية ما بين حال الاستحسان وحال الاستهجان، حيث نجد في نصوص الفقه والنوازل تعاملات المسلمين مع ظاهرة الرق مع العبيد السود المجلوبين من بلاد الحبشة، حيث تعامل جل الفقهاء مع النوازل المتعلقة بظاهرة الرق، وبنوا أحكاما وحقا لحفظ النفس البشرية وشروطا للعتق، وعرضت قضايا البيوع والتدليس بهم على القضاة وأفتوا فيها، وفي قضايا الإماء المعتوقات وحقهن في الحرية هن وأولادهن.

أما عن النصوص الكرامية فلم تخل من نظرة الاستحسان والتبجيل لأولياء الله الصالحين من ذوي البشرة السوداء.

أما عن الصورة التي أظهرتها الناحية الأدبية من أشعار وأمثال وأزجال فقد اتسمت بالاستهجان أكثر من الاستحسان، واعتبر أي شيء متعلق بالسواد رمزا للحزن والكآبة

[1] الادريسي، محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الحسني الطالبي، المعروف بالشريف الادريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ط1، عالم الكتب، بيروت، 1409هـ، المجلد الأول، ج2، ص22.

والذم والفشل والكرب، وفي قصائد أخرى حسن السواد وجعل رمزا للقوة وتعبيرا عن السّكون في اللّيل، ومفازا للتأمل والتدبر.

ولا ننسى نصيب السواد من كتب الرحلة في وصف أهل السودان كمجتمع ضال بعيد عن الحكمة محب للفوضى والرقص، والقرع على الطبول، مما يستنتج استخلاص النظرة الدونية التي تميزت بها كتب الرحالة من واقعهم المعاش في فترات من رحلاتهم ومواقفهم في تلك المناطق التي يعيش فيها سود البشرة.

الخاتمـة

بعد خوض غمار هذا البحث في حيثيات الصُّورة التي شكّلها متخيل الغرب الإسلامي عن الأسود، فقد توصلت الدراسة إلى النتائج التّالية:

– في ظل الوقوف على مفهوم الصّورة والمتخيّل تبيّن أنّ الصورة الذهنية تتشكل ضمن الكثير من المرجعيات التّاريخية والثقافية بمختلف أساليبها وقدمها وتندمج مع المتخيل الثقافي؛

– كان اللّون الأسود في أفق الغرب الإسلامي مُقصى من قاموس الجمال والاستحسان في كثير من الأحيان، سواء من ناحية دلالاته المختلفة في الطبيعة كلون مجرّد، أو كَلون من ألوان البشر، حيث استبعد هذا الأخير من الحياة الطبيعية الهادئة في مجتمع الغرب الإسلامي؛

– اختزلت الغاية من إبقاء العنصر الأسود حيّا والتّعامل معه في خدمة البشر البيض في مختلف احتياجاتهم، حيث تهضم حقوقه وتلغى إنسانيته، لكنّه شكّل مادّة دسمة لفتاوى ونوازل، وأحكام قضايا، وقصائد ذم لشعراء، وظواهر غريبة لرحّالة، ومَورد اقتصادي لتجّار، فخاضوا فيها حد السيف، وفي ظل هذه الصّور المؤسفة، ظهرت المدوّنات الفقهية والصّوفية المنقبية لترجع له حقّه الطبيعي الإنساني بذكر مناقبه وكراماته وعلمه وفقهه وحفظه لكتاب الله وسنّة نبيّه وإمامته النّاس؛

– لله عز وجل حكمة في اختلاف ألسنة البشر وألوانهم لقوله تعالى: ﴿ومِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ﴾ [الروم: 55]. ومع عدم وجود حكم صريح بتحريم الاسترقاق إلا أن

الإسلام جعل من فضائله عتق الرّقاب، لما له من جزاء حميد وعاقبة للحصول على الثّواب من عنده سبحانه وتعالى، حيث جعل عباده الصّالحين يتدبّرون في حكمته وعظيم شأنه، ومنها تولّدت الإنسانية في حُبّ المسلم لأخيه المسلم، وعولجت الظاهرة بأن كرم الإسلامي عند بزوغه بأن أعطى مكانة للمسلمين الضعفاء ذوي البشرة السوداء، وبلال الحبشي العبد السّيد المتجرّد رضي الله عنه بصحبة النّبي صلى الله عليه وسلم ومؤذّن لصلوات الله عزّ وجلْ؛

– إن الظّاهرة الاجتماعية في تفشيها داخل ذهنيات المجتمع لا يمكن تغييرها جذريا مهما طرأت عليها مبادئ عقائدية مقدسة، في حين يظهر عجزها في مختلف الممارسات اليومية وتفاصيل المعاملات بين الأفراد حيث تبقى نزعة هذه الظاهرة متوغلة في باطن متخيل الشعوب مع أن هذا الأمر لا يمكن الاعتراف به تحت مسمّى مبدأ المساواة؛

– عمل الإسلام بعقوله وعلمائه وفقهائه على تجريد اسمه من هُوّة العبودية، واستهجان العنصر البشري الأسود، لكن الهُوّة بين هذا وذاك اتسعت لتطيح بتمثّلات المجتمعات في وهدها، إلى غاية اللّحظة التي تكتب فيها هذه العبارات؛

– كان للنّصوص المدوّنة للتّصورات الفكرية، الأثر البالغ في بروز النّزعات الإنسانية من خلال انعكاساتها على الذّهنيات والممارسات وتوارثها عبر الأزمنة، وتنافست الكتابات وبذلك خاضت في صورة الأسود في الغرب الإسلامي.

أسباب ظاهرة إستهجان الأسود:

– ظاهرة نبذ الأسود واستعباده، واستهجان اللّون كلون هي ظاهرة جاهلية متوارثة عبر الأجيال، حتى بزوغ فجر الإسلام الذي حاول القضاء عليها تدريجيا بعدما كانت متفشية في أعلى وتيرتها؛

– الطّبقة الأدبية لا زالت تستخدم هذ السّلوكيات النّمطية في كتاباتها، من خلال نصوصها المتنوّعة من نثر وشعر وزجل، مما يجعل النظرة الاستهجانية تترسخ وتمتد إلى أبعاد أخرى تؤدي لخلق أزمات في المجتمع الدولي؛

– الصّراع السياسي جعل صورة الأسود حاضرة في مواقع انتقائية لتمثّلات استهجانية هدفها المصادرة على المختلف؛

توصيات:

– وجب على جهة القضاء فرض عقوبات جديدة منصوص عليها قانونيا، ضد كل سلوك عنصري يمارس على العنصر البشري الأسود وتفعيلها؛

– كون دور المؤثرين في المجتمع بالغا في ترسيخ هذه السّلوكيات النمطية، ويقصد بذلك رجال الدّين والمؤلفون والمؤرخون والباحثون والإعلاميون وحتى صناع السّينما في معالجتهم لمختلف الظواهر التّاريخية والاجتماعية عبر رسائل مشفرة تعطي صفة التّحضر والخير للأبطال البيض، وصفة الحيونة والهمجية غالبا ما تكون من ميزات السود، حيث يلزم عليهم خلق مجال تأليفي جديد نقي يسعى لتفكيك هذا المرض الجماعي ومحاولة علاج هذه الظّاهرة بالاستعانة بعلماء النّفس والاجتماع وذلك لمحاربة الاعتقاد الخاطئ بأفضلية البشر عن بعضهم البعض من ناحية ألوانهم وعرقهم، برفع مستوى الوعي بصراحة مطلقة بعيدا عن إيجاد أي مشكلة في الحديث عنها.

آفاق الدراسة:

– تفتح آفاقا تتعلق بتتبع صورة الأسود في متخيل الغرب الإسلامي، والبحث في قوانين أحكام الفقه وما يقابلها من تصوّرات باطنية ومرجعيات تاريخية عن الأسود، في إطار خارج عن المجال الزّماني والمكاني، من العصر الجاهلي إلى السّنوات والقرون الأولى للفتح الإسلامي، للوصول إلى نسبة تماشي هذه الذّهنيات، وصولا إلى العصر الوسيط، مرورا إلى الفترة الحديثة والمعاصرة المعالجة لقضايا التمييز العنصري الحاصل في المجتمعات العربية والغربية، وامتزاجها بالواقع السّياسي والاقتصادي، مما يحمله من أثر بالغ في تكوين ذهنية المجتمعات وسلوكياتهم النّمطية مع المقارنة بين المدوّنات المشرقية، لاستنتاج صورة الأسود ورفع مستوى الوعي حول موضوع العنصرية، والبحث عن طرق مختلفة للتفكير ومعالجة هذا الداء الخبيث في مجتمعاتنا، كونه جزءا من هويتنا العربية الباطنية؛

– تفتح آفاق تتعلق بدراسة "صورة الأبيض في متخيل السود"، لرؤية مدى انعكاس الصورة النّاتجة عن التّراكمات والمرجعيات والتحيز.

الورّاقيـة

- **القرآن الكريم** (رواية حفص عن عاصم).

أولا- المصادر:

- ابن الأبار، أبو عبد الله محمد القضاعي البلنسي، ديوان ابن الأبار، قراءة وتعليق: عبد السلام الهراس، ط1، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، 1420هـ/ 1999م.
- ابن بطال، أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك (ت 449هـ/1057م): شرح صحيح البخاري، ضبط نصه وعلق عليه: أبو تميم ياسر بن إبراهيم، ط2، مكتبة الرشد، الرياض، السعودية، 1423هـ/2003م، ج9.
- ابن بطوطة، محمد بن عبد الله (ت 779هـ/1377م): تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، 1317هـ/1900م.
- ابن تيمية (ت 728هـ/1328م): المعجزات والكرامات وأنواع خوارق العادات ومنافعها ومضارها، تحقيق: أبو عبد الله محمود بن إمام، ط1، مكتبة الصحابة، طنطا، 1406هـ/1986م.
- ابن الحاج التجيبي الأندلسي المالكي(ت 529هـ/1133م): نوازل ابن الحاج التجيبي المحقق الدكتور أحمد شعيب اليوسفي، ط1، الجمعية المغربية للدراسات الأندلسية 1439هـ/2017م، ج3.
- ابن حزم أبو محمد علي أحمد (ت 456هـ/1064م): طوق الحمامة في الألفة والألاف، تحقيق صلاح الدين القاسمي، دار المعارف، القاهرة، 1358هـ/1980م.
- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد الحضرمي (ت 808هـ/1405م): ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الكبر، ضبط المتن

وضع الحواشي والفهارس: خليل شحادة، مراجعة: سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، 1421هـ/2001م.

- ابن دراج القسطلي (ت 421هـ/1031م): الديوان، حققه وعلق عليه: محمود علي مكي، ط1، منشورات المكتب الإسلامي، دمشق، 1380هـ/1961م.
- ابن رشد، أبو الوليد محمد بن أحمد القرطبي (ت 520هـ/1198م): مسائل أبي الوليد ابن رشد، تحقيق: محمد الحبيب التجكاني، ط2، دار الجيل، بيروت – دار الآفاق الجديدة، المغرب، 1413هـ/1993م.
- ابن الزيات، أبو يعقوب يوسف بن يحي التّادلي (ت 627هـ/1229م): التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي، تحقيق: أحمد التوفيق، ط2، مطبعة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1417هـ/1997م.
- ابن أبي زيد القيرواني، أبو محمد عبد الله (ت 386هـ/997م): الجامع في السنن والآداب والمغازي والتاريخ، تحقيق: محمد أبو الأجفان، ط2، المكتبة العتيقة، تونس، 1403هـ/1983م.
- ابن أبي زيد القيرواني، أبو محمد عبد الله (ت 386هـ/997م): رسالة ابن أبي زيد القيرواني مالك الصغير، تحقيق: الشيخ عبد الوارث محمد علي، دار الفضيلة، مصر، د.ت.
- ابن عبدون، محمد بن أحمد التجيبي (ت 527هـ/1135م): رسالة في الحسبة، ط1، نشر: ليفي بروفنسال، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، 1374هـ/1955م.
- ابن العربي المالكي (ت 543هـ/1149م): عارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، د.ت، ج2.

- ابن عطية، أبو محمد عبد الحق المحاربي الأندلسي (ت 541هـ/1146م): المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ط ج، دار ابن حزم، بيروت، د.ت.
- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (ت 711هـ/1311م): لسان العرب، دار المعارف، القاهرة، د.ت.
- الأبي، محمد بن خليفة الوشتاني (ت 827هـ/1424م): صحيح مسلم بشرحه المسمى إكمال إكمال المعلم، ومكمل إكمال الإكمال لمحمد بن محمد بن يوسف السنوسي الحسني، صححه محمد سالم هاشم، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت، ج3.
- البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة الجعفي (ت 256هـ/ 870م): الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله وسننه وأيامه، تحقيق: محب الدين الخطيب، ط1، المكتبة السلفية، القاهرة، 1400هـ/1980م، ج3.
- البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة الجعفي (ت 256هـ/ 870م): الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله وسننه وأيامه، تحقيق: محمد زهير الناصر، ط1، دار طوق النجاة، بيروت، 1422هـ/2002م.
- الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سَوْرة (ت 279هـ/892م): الجامع الصحيح وهو سنن الترمذي، تحقيق وتعليق: إبراهيم عطوة عوض، ط1، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، القاهرة، 1392هـ/1902م.
- التميمي، أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم التميمي الفاسي (ت603هـ/1207م): المستفاد في مناقب العباد بمدينة فاس وما يليها من العباد، تحقيق: محمد شريف، ط1، مطبعة توب برس، الرباط، 1422هـ/2002م، ج1.
- التنبكتي، أحمد بابا (ت1036هـ/1627م): معراج الصعود.. أجوبة أحمد بابا حول الاسترقاق، تحقيق: فاطمة الحراق وجون هانويك، ط1، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، الرباط، 2000م.

- الجوهري، إسماعيل بن حماد (ت 393هـ/1003م): الصحاح، دار الحديث، القاهرة، 2009.
- الرّصاع، أبو عبد الله محمد الأنصاري (ت 894هـ/1489م): شرح حدود ابن عرفة، تحقيق: محمد أبو الأجفان والطّاهر المعموري، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1417هـ/1997، ج1.
- الزجالي، أبو يحيى عبيد الله بن أحمد القرطبي (ت 375هـ/986م): أمثال العوام في الأندلس، تحقيق: محمد بن شريفة، وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية والتعليم الأصلي، المغرب، 1395هـ/1975م.
- السقطي، أبو عبد الله محمد بن أبي محمد المالقي الأندلسي (حي 610هـ/1213م): آداب الحسبة، تحقيق: ليفي بروفنسال، مطبعة ارنست لورو، باريس، 1350هـ/1931م.
- الطليطلي، أبو الحسن علي بن عيسى بن عبيد (ت 256هـ/870م): مختصر الطليطلي، تحقيق: محمد شايب شريف، ط1، دار ابن حزم، بيروت، د.ت.
- الغرناطي، أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد بن عبد الرحمن (ت 579هـ/1183م): الوثائق المختصرة، تحقيق: إبراهيم بن محمد السهلي، ط1، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، 1432هـ/2011م.
- القاضي عياض وولده (ت 544هـ/1149م): مذاهب الحكام في نوازل الاحكام، تحقيق وتعليق: محمد بن شريفة، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1417هـ/1997م.
- القرطبي، أبو العباس أحمد بن عمر الأنصاري (ت 656هـ/1258م): المفهم لما أشكل من تلخيص صحيح مسلم، تحقيق: عبد الهادي التازي، ط1، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، 1424هـ/2004، ج1.

- القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري (ت 671هـ/1273م): الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان، تحقيق: عبد الله المحسن التركي، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، 1427هـ/2006م.
- المازري، أبو عبد الله محمد بن عمر(ت 536هـ/1141م): المعلم بفوائد مسلم، تحقيق محمد الشاذلي النيفر، ط2، الدار التونسية للنشر، تونس، 1408هـ/1988م.
- النبهاني، يوسف بن إسماعيل (ت 1350هـ/1931م): جامع كرامات الأولياء، تحقيق: إبراهيم عطوة عوض، ط1، مركز اهلسنت بركات رضا، فوربندر غجرات الهند، 2001، ج1.
- الونشريسي، أحمد بن يحيى (ت 914هـ/1509م): عدة البروق في جمع ما في المذهب من الجموع والفروق، تحقيق: حمزة أبو فاس، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1410هـ/1990م.
- الونشريسي، أحمد بن يحيى (ت 914هـ/1509م): المِعْيَارُ المُعْرِبُ والجَامِعُ المُغْرِبُ عن فتاوى علماء إفريقيّة والأندلس والمغرب، أخرجه جماعة من الفقهاء بإشراف محمد حجّي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1404هـ/1981م.

ثانيا- المراجع:

- أفاية، محمد نور الدين، الغرب المتخيل -صورة الآخر في الفكر الإسلامي الوسيط- ، ط1، المركز الثقافي العربي، بيروت لبنان، 2000م.
- الألباني، أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين: غاية المرام في تخريج أحاديث الحلال والحرام، ط1، 1980.

- بلغيث، محمد الأمين، دراسات في تاريخ الغرب الإسلامي، دار التّنوير، الجزائر، 2009.
- رنيه وويليك وأوسن وارن، نظرية الأدب، تعريب: عادل سلامة، دار المريخ، المملكة العربية السعودية، 1992.
- العبيدي، وسام حسين جاسم، صورة المجنون في المتخيل العربي منذ العصر الجاهلي حتى القرن الخامس هجري، ط1، دار الروافد الثقافية، بيروت، لبنان، 2016.
- عمر، أحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة، ط1، عالم الكتب، مصر، 2008م.
- عمرون، بلال، "ألفاظ أندلسية في المنطوق اللهجي الجزائري.. قراءة في كتب الأمثال والأزجال الأندلسية"، مجلة قبس للدراسات الإنسانية والاجتماعية، جوان 2018، المجلد 02، العدد 01.
- عنوز، صباح عباس، الصورة الفنية بين حسيتها وإيقاع المعنى، بيروت: دار السلام، لبنان، 2010.
- عيوني، محمد، "دور الرقيق في الحياة السياسية والثقافية ببلاد المغرب والأندلس خلال القرنيين 4 و5 الهجريين"، رسالة ماجستير في العلوم الإسلامية، جامعة الجزائر1، كلية العلوم الإسلامية، قسم اللغة والحضارة العربية الإسلامية، 2012-2013.
- غبن، يحيى أحمد رمضان، دلالات الألوان في شعر الحروب والفتن في الأندلس أطروحة دكتوراه، الجامعة الإسلامية، غزة، 2017.

- الفيلالي، الحسن الزين، "النوازل المغربية ودورها في حفظ فتاوى أعلام المذهب المالكي بالقيروان"، ط1، ملتقى: القيروان مركز علمي مالكي بين المشرقي والمغربي نهاية ق5هـ، مركز الدراسات الإسلامية، القيروان، تونس، 1995.
- كاظم، نادر، تمثيلات الآخر صورة السود في متخيّل العربي الوسيط، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2004.
- مجاهد، عماد، الكون طريقي إلى الله، دروب للنشر والتوزيع، الأردن، 2010.
- مجموعة من الباحثين بإشراف الشيخ عَلوي بن عبد القادر السقاف، الموسوعة العقدية، موقع الدرر السنية على الرابط: www.dorar.net، ج8.
- اليافي، نعيم، مقدمة لدراسة الصورة الفنية، منشورات وزارة الثقافة السورية، دمشق، 1982.
- يحيى جاد، الصورة النمطية، مجلة قضايا فكرية، على الرابط:

http://www.hiramagazine.com

الكشافات

01- كشاف الآيات القرآنية

02- كشاف الأحاديث النبوية

01- كشاف الآيات القرآنية

الآية	رقمها	السورة	الصفحة
﴿أُحِلَّ لَكُمۡ لَيۡلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمۡۚ هُنَّ لِبَاسٞ لَّكُمۡ وَأَنتُمۡ لِبَاسٞ لَّهُنَّۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَخۡتَانُونَ أَنفُسَكُمۡ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡ وَعَفَا عَنكُمۡۖ فَٱلۡـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبۡتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ مِنَ ٱلۡفَجۡرِۖ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيۡلِۚ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمۡ عَٰكِفُونَ فِي ٱلۡمَسَٰجِدِۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقۡرَبُوهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ١٨٧﴾.	187	البقرة	24
﴿يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡوَدَّتۡ وُجُوهُهُمۡ أَكَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ١٠٦ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبۡيَضَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فَفِي رَحۡمَةِ ٱللَّهِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ١٠٧ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٨﴾.	106 107 108	آل عمران	18
﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٖ بِمِثۡلِهَا وَتَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۖ كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ	27	يونس	21

أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾.			
﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّا وَهُوَ كَظِيم﴾.	58	النحل	21
﴿قَالَ بَلۡ أَلۡقُواْ فَإِذَا حِبَالُهُمۡ وَعِصِيُّهُمۡ يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا تسعى﴾.	66	طه	13
﴿أَلَم تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاء فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ ثَمَرَٰت مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهَا وَمِنَ ٱلۡجِبَال جُدَدُ بِيض وَحُمر مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُود﴾.	27	فاطر	25
﴿ومنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ﴾.	55	الزمر	66
﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحۡمَٰنِ مَثَلا ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾.	17	الزخرف	22

02- كشاف الأحاديث النبوية

طرف الحديث	الصفحة
"إذا قامَ أحَدُكُمْ يُصَلِّي، فإنَّه يَسْتُرُهُ إذا كانَ بيْنَ يَدَيْهِ مِثْلُ آخِرَةِ الرَّحْلِ، فإذا لَمْ يَكُنْ بيْنَ يَدَيْهِ مِثْلُ آخِرَةِ الرَّحْلِ، فإنَّه يَقْطَعُ صَلاتَهُ الحِمارُ، والْمَرْأَةُ، والْكَلْبُ الأسْوَدُ".	28
"إنَّ هذِه الحَبَّةَ السَّوْداءَ شِفاءٌ مِن كُلِّ داءٍ، إلّا مِنَ السّامِ".	31
"رَأَيْتُ امرَأَةً سَوْدَاءَ ثَائِرَةَ الرَّأْسِ، خَرَجَتْ مِنَ المَدِينَةِ حتَّى نَزَلَتْ بمَهْيَعَةَ فَتَأَوَّلْتُهَا أنَّ وبَاءَ المَدِينَةِ نُقِلَ إلى مَهْيَعَةَ. وهي الجُحْفَة".	30
"غَيِّرُوا هذا بشيءٍ، وَاجْتَنِبُوا السَّوَاد".	27
"والَّذي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بيَدِهِ، إنِّي لَأَرْجُو أنْ تَكُونُوا نِصْفَ أهْلِ الجَنَّةِ؛ وذلكَ أنَّ الجَنَّةَ لا يَدْخُلُهَا إلَّا نَفْسٌ مُسْلِمَةٌ وما أنتُمْ في أهْلِ الشِّرْكِ إلَّا كَالشَّعْرَةِ البَيْضَاءِ في جِلْدِ الثَّوْرِ الأسْوَدِ، أوْ كَالشَّعْرَةِ السَّوْدَاءِ في جِلْدِ الثَّوْرِ الأحمر".	31
"يا أيُّها النَّاسُ ألا إنَّ ربَّكم واحدٌ وإنَّ أباكم واحدٌ ألا لا فضلَ لِعَربيٍّ على أعجميٍّ ولا لعَجميٍّ على عربِيٍّ ولا لِأحمرَ على أسودَ ولا لِأسودَ على أحمرَ إلاَّ بالتَّقوى ان اكرمكم عند الله أتقاكم".	34
"يُؤْتَى بالقُرْآنِ يَومَ القِيامَةِ وأَهْلِهِ الَّذِينَ كانُوا يَعْمَلُونَ به، تَقْدُمُهُ سُورَةُ البَقَرَةِ وآلُ عِمْرانَ، وضَرَبَ لهما رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ ثَلاثَةَ أمْثالٍ ما نَسِيتُهُنَّ بَعْدُ؛ قالَ: كَأنَّهُما غَمامَتانِ، أوْ ظُلَّتانِ سَوْداوانِ، بيْنَهُما شَرْقٌ، أوْ كَأنَّهُما حِزْقانِ مِن طَيْرٍ صَوافَّ تُحاجَّانِ عن صاحِبِهِما".	33

فهرس المحتوى

فهرس المحتوى

الإهداء

الشكر والعرفان

المقدمة.....(01-09)

الفصل التمهيدي: مفاهيم أساسية .....(10-30)

أولا: مفهوم الصورة.....11

ثانيا: مفهوم المتخيل.....13

الفصل الأول: صورة الأسود في النصوص التأسيسية وشروحها.....(15-30)

أولا: صورة الأسود في نصوص القرآن الكريم وتفاسيره.....16

ثانيا: صورة الأسود في النصوص النبوية وشروحها.....23

الفصل الثاني: صورة الأسود في المدونات التّراثية وتمثُّلاتها.....(31-58)

أولا: صورة الأسود في المدونة الفقهية.....32

ثانيا: صورة الأسود في المدونة الصوفية..... 44

ثالثا: صورة الأسود في المدونة الأدبية.....49

الخاتمة.....59

الورّاقية.....64

الكشافات.....72

فهرس المحتوى.....76

الملخّص:

يهدف هذا البحث إلى تسليط الضوء على موضوع صورة الأسود في مُتخيل مجتمع الغرب الإسلامي، كَوْن هذه الصُّور بوصلة لتوجيه المجتمع الحديث، حيث تم استنباطها من خلال التطرّق للمدوّنات التراثية. وقد تمت الاستعانة بالمنهج التاريخي في مقاربة نصوص المدّونات التّراثية من نوازل وأحكام فقهية، وأخبار ومناقب كرامية، وكذا النصوص الأدبية من أشعار وأزجال وأمثال، كما قد جرت الاستعانة بمنهجي الاستقراء والمقارنة في التعاطي مع مختلف الشروح والتفاسير للنّصوص التأسيسية، حيث خلص البحث إلى أنّ كتابات متخيل شعوب الغرب الإسلامي صاغت صورة نمطية عن الأسود بجانبيها الاستهجاني والاستحساني، كدلالة تعبّر عن الكدر والكآبة والمعصية، وأشخاص يصنفهم جلدهم الأسود ضمن حيز الحيوانات والسّلع والخدم السّاهرين على راحة البيض، وقد ساعدتها على ذلك المرجعيات السّابقة الّتي كانت ملابسة لظاهرة الرّق والعبودية والاعتقادات الخاطئة حيال السُّود، لما لها من أثر بالغ في بروز النّزعات الإنسانية وانعكاساتها على الممارسات وتوارثها عبر الأزمنة، لكن حاول الجانب الدّيني التّعامل معها تحت غطاء الأحكام والقضاء والفتاوى، والعمل على محاربتها تدريجيا، كونها ظاهرة متوغّلة في ذهنية المجتمع آنذاك، وتغيير النّظرة المتوحّشة تجاه السود، وتكريمهم بإبراز دور الصّالحين منهم، وذكر فضائلهم وعلومهم في مختلف النصوص الصوفية، وترسيخ مبدأ المساواة بين البشر مهما اختلفت ألوانهم.

الكلمات المفتاحية: الأسود، الصورة، المُتخيّل، الغرب الإسلامي، القرآن، السّنة.

Abstract:

This research sheds light on the subject of the image of blacks in the writings of the Islamic West, as such images give an insight to understand modern society. The inductive and comparative methods were used for the various explanations of the founding texts. The descriptive approach was used with patrimonial writings, Islamic texts such as Islamic laws, Fiqh teachings, and with literary texts related to prose, poetry and sayings. The research concluded that the writings of the Islamic-West peoples framed a stereotypical image of blacks with its approving and disapproving sides, especially as an indication of melancholy, sin and of people whose black skin categorize them in a class that includes animals, goods and servants fulfilling the needs of the white people. The previous presumptions co-existing with slavery, servitude and false beliefs about the blacks helped to fuel the disapproving side; the fact that profoundly affected the emergence of some negative human practices over time. However, the religious side tried to deal with the issue by legislating laws, enacting rulings and fatwas to gradually work it out being a phenomenon that shaped the mentality of society at that time – through changing the savage view towards blacks; honoring them by highlighting the role of the righteous among them; by mentioning their virtues and their sciences in the various texts of Sufism; and by consolidating the principle of equality between human beings whatever their skin colour might be.

Keywords: Blacks, Image, Writings, Islamic West, Quran, Sunnah.